٢٠٠

HARLEQUIN

روايات احلام

وجهان لامرأة

كاثرين جورج

www.rewity.com
منتديات روايتي

وجهان لامرأة

- عندما كنتِ صغيرة، كنتِ مجنونة بي يا روزا!

- كان هذا جنون المراهقة، وقد انتهى...

ابتسم ليو: «إذا أنت حاولتِ من جديد، فأنا اليوم أكثر استعداداً للاستجابة إلى مشاعرك».

كبحت هاريت رجفة تملكتها... كيف لو عرف ليو فورتيناري الثري الإيطالي أنه ضحية خدعة؟ وأنها ليست روزا التي يظنها والتي يريدها أن تكون زوجته؟

لكن إلى أي مدى تستطيع هاريت الانجراف في هذه الخدعة؟ ولماذا تخشى من نظرة ليو فورتيناري إليها إن اكتشف الحقيقة؟

ISBN:9953-15-015-X

لبنان ١١٠٠ ل.ل.
سوريا ٧٥ ل.س
الأردن ١٫٥٠ دينار
الكويت ٥٠٠ فلس
الإمارات ١١ درهم
قطر ١٠ دراهم
البحرين ٣ دنانير
السعودية ١٠ ريال
مصر ٨ جنيه
المغرب ١٥ درهم
تونس ٢ دينار
عمان ١ ريال

www.rewity.com

١ ـ البديلة

منتديات روايتي

عندما لاحت حقيبتها المستعارة، على قاعدة عرض الأمتعة في المطار، ملك «هاريت» رغبة مفاجئة في أن تختطف الحقيبة لتعود فوراً من «بيزا» إلى «هيثرو» في لندن. ولكن عندما اقتربت الحقيبة منها، إذا بيد رجل تسبقها إليها، محبطةً في نفسها فكرة الهرب، وصوت يقول بلكنة إيطالية: «روزا!».

التفتت هاريت، مستسلمة، لتقابل وجهاً كان قد أصبح مألوفاً لديها، كوجهها. لكن صوره التي ظللا أكبّت عليها، مدققة متفحصة، لم تكن لتفيه حقه. كان «ليوناردو فورتيناري»، ببذلته الأنيقة البسيطة، أطول مما توقعت. سواد عينيه وشعره يشبه سواد عينيها وشعرها. وفي صوره المأخوذة منذ سنوات، بدا جذاباً أكثر منه وسيماً. لكنه، مع تقدّمه في السن وما يصحب ذلك من صَقَل وكبرياء، أصبح رجلاً لا يقاوَم.

أجابت بابتسامة، تعمّدتها ساخرة لتغطي بها ذُعرها:

ـ لماذا، يا ليو، هذا الشرف؟ كنت سأستقل قطار العودة؛ إذ لم أكن أتوقع من يستقبلني، وخصوصاً «ليو فورتيناري»!

هز كتفيه غير حافل بالجموع المتدافعة حولهما، فيما هو ثابت في وقفته يتأملها من فوق لتحت، مقطباً جبينه، بنظرات ثاقبة شعرت بها تخترق جلدها:

ـ لدي عمل في «بيزا». لقد أصبحت امرأة رائعة الجمال، يا روزا!

خفق قلب هاريت تحت سترتها المستعارة، وأجابت بهدوء مفتعل:

«شكراً! كيف حال «نونا»؟».

ـ جيدة، بالتأكيد. تعالي؛ سآخذك إلى فيلا كاستيغليون». إنها تنتظرك بفارغ الصبر.

كانا قد اجتازا الأوتوستراد، فسألها: «أعتقد أنك تعافيت، يا روزا؟».

نظرت إليه مُجفَلة، فتابع يقول برزانة: «أعني من صدمتك بوفاة والديك».

عضَّت هارييت شفتها ولاذت بالصمت.

رقَّت أساريره قليلاً: «آسف لعدم تمكني من حضور الجنازة».

ـ أشكرك لرسالتك. كانت بالغة الرقة.

والتكلُّف أيضاً، وكأنه كان مرغماً على كتابتها.

استمرت رحلتهما بصمت غير مريح. كان «ليو فورتيناري» مؤدباً دمثاً، إنما شارد الذهن؛ وقد بدا من تصرفاته أنه غير مستعد للصفح عن التي عرفها على الدوام فتاة طائشة.

لا بأس! ولعله من الأفضل في الظروف الحالية الابتعاد قليلاً عن هذا الرجل، الخطر الجاذبية.

لم يخطر ببال هارييت قط أنها ستقابله بمثل هذه السرعة، وأن هذا الرجل الكبير سيستقبلها بنفسه في المطار. ربما توقعت أن يقوم بذلك أخوه الأصغر «دانتي»، أو أحد خدم الأسرة، ولكن ليس ليوناردو العظيم مطلقاً. لكنها، من ناحية أخرى، شعرت بالارتياح للانتهاء من هذه المواجهة بسرعة، فتكون بذلك قد اجتازت عقبة من اثنتين هما الأكثر صعوبة. إذ لم يبق عليها لهذه الليلة سوى مواجهة «نونا»، أو بالأحرى «السنيورا فيتوريا فورتيناري»! أما الاجتماع بأفراد الأسرة الآخرين، بما في ذلك دانتي وميريل، فسيكون في حفلة اليوم التالي... هذا إذا لم ينكشف أمرها قبل ذلك الحين.

تصاعد توتر هارييت عندما اقتربت السيارة من المنزل.. إنها محنة اللقاء مع «السنيورا فورتيناري»! كانت السيارة قد دخلت ناحية الريف حيث انتشرت المزارع العتيقة والبيوت الريفية الكبيرة، لكن هارييت لم تكن تحفل

بذلك كله، إذ بينما كانت السيارة تطوي المسافات، كان تفكيرها منصباً على كيفية قضائها عطلة نهاية الأسبوع من دون التسبب بالضرر لأي كان.. ولنفسها أيضاً. صحيح أنها كانت على الدوام متشوقة للعودة إلى إيطاليا، لكن لهفتها لم تبلغ حد القيام بهذه المغامرة الطائشة، ولم تكن تتمنى أن يُعرض عليها مثل هذا الأمر في وقت تعجز فيه عن الرفض.

***

ألقت هارييت نظرة جانبية على وجه رفيقها الممتلىء قوة، وشعرت بالارتياح لعدم رغبته بتبادل الحديث مع من كان يظنها ابنة عمته روزا. عادت بها الأفكار إلى تلك اللحظة في «فندق تشسترتون» عندما تلكأت «روزا موستين» في قاعة خاصة مليئة بنسوة كن يتحدثن بأصوات عالية عن حاجتهن إلى المهن والأزواج منذ مغادرتهن مدرسة «روديل» الراقية للبنات.

كانت هارييت نفسها من خريجات تلك المدرسة. وكانت قد حصلت على منحة دراسية في سن العاشرة، تمكنها من الالتحاق بتلك المدرسة الداخلية بصفة تلميذة خارجية.

منذ مدة، تلقت هارييت اتصالاً تليفونياً من مديرة المدرسة تدعوها للمشاركة في اجتماع مع الآباء والأمهات الذين لديهم فتيات صغيرات، والتحدث إليهم عن التحسينات العصرية التي أُدخلت على المدرسة. ولأن هارييت كانت ستعود إلى مدرسة «روديل» هذه لتدريس «اللغات المعاصرة»، فقد قبلت الدعوة. بعد جولة من التحيات وتبادل الأحاديث، وبينما كانت ترشف العصير وتفكر في طريقة للانسحاب والهرب، رأت آخر شخص توقعت رؤيته وهي «روزا موستين»!

بعد ثماني سنوات، ما زالت مواجهتها لهذه الفتاة التي تكاد تكون توأماً لها، تحدث لها صدمة. وقفت روزا جامدة عند العتبة، بطقمها الإيطالي التصميم، وشعرها المسدل على كتفيها كالساتان الأسود، فيما كانت عيناها السوداوان الكبيرتان تجولان في بحر من الوجوه المقعمة بالحيوية. فجأة،

www.rewity.com

رفعت يدها المزينة بخاتم ذهبي ضخم تحيي بها هاربيت، بعد أن تلاقت أعينهما. أخذت هاربيت تتأمل جمال روزا الرائع وهي تنساب خلال الجموع المثرثرة، تحيي البعض بوجه مشرق، وآخرين بأدب لعدم قدرتها على تذكرهم، إلى أن انتهت إلى هاربيت، مبتسمة لها: «مرحباً. هل تذكرتني؟».

أجابتها هذه بابتسامة، وهي تسمع الهمهمات تسري في القاعة، بعد أن لاحظ المدعوّون الشبه. ثم أجابت مقلبة شفتيها:

ـ وكيف أنسى؟ لقد ظنني النادل أنت حين وصولي!

ـ آسفة لذلك! هل معك أحد؟

أضافت روزا الجملة الأخيرة بتردد، فهزت هاربيت رأسها نفياً.

ـ هل لديك مانع إذن من أن أجلس معك؟

ـ لا مانع على الإطلاق.

ابتسمت روزا شاكرة، ثم ربتت على يد هاربيت اليسرى:

ـ ليس لديك خاتم! هذا لا يعني شيئاً بالطبع. ماذا تفعلين هذه الأيام، يا هاربيت؟

تمنّت هاربيت لو تخبرها بأنها صديقة رجل ملياردير، أو ما أشبه، لكنها قالت الحقيقة:

ـ أنا معلّمة. سأبدأ بتعليم اللغتين الفرنسية والإيطالية في مدرسة «رودبل» مع بداية السنة المدرسية. لكنني، حالياً، أقوم بالترجمة في شركة محلية تصدر إنتاجها إلى أوروبا.

أومأت روزا، قائلة: «دوماً كنت أنت المتفوقة في اللغات!».

ثم أشارت إلى النادل: «عصير من فضلك، وجدّد شراب صديقتي!».

دهشت هاربيت. لم تكن ثمة صداقة بين هاربيت فوستر وروزا موستين في الأيام الخوالي على الإطلاق! لم يكن هذا التشابه الغريب ليجمع بينهما، بل على العكس كان يسبب لهما شعوراً بالحرج؛ فقد كانت هاربيت تلميذة خارجية تأتي إلى المدرسة يومياً بالباص، وكانت متفوقة في الدراسة، بينما كانت روزا في القسم الداخلي تركز اهتمامها على أناقتها وانتظار يوم التخرج.

قبلت هاربيت العصير، شاكرة: «لم أتوقع رؤيتك الليلة!».

هزت روزا كتفيها:

ـ لم يكن في نيتي القدوم، لكنني تلقيت اتصالاً تليفونيا في آخر لحظة يلغي موعدي الغرامي هذه الليلة. كنت مرتدية ملابسي الكاملة، ولم تكن لدي أية فكرة عن مكان آخر أذهب إليه.. هكذا جئت إلى هنا! لم لا؟ إن أسرتي هي صاحبة «فندق تشسترتون»، وبهذه الصفة أزور الموظفين وأرى من تغيّر منهم.

قالت ذلك وهي تنظر حولها.

قالت هاربيت: «ولكن لا يوجد أيّ من صديقاتك المقرّبات هنا! كنت، أيام المدرسة، محاطة بهن على الدوام».

ابتسمت روزا ساخرة: «إنها أموال آل موستين، يا عزيزتي، وليس لطفي وشخصيتي!».

ساد الصمت للحظات. ثم قالت هاربيت:

ـ أسفت جداً لما حدث لوالديك.

أجابت روزا بهدوء: «شكراً! لم يسبق لهما قط أن ركبا نفس الطائرة معاً قبل ذلك الحادث».

وضعت كوبها وهي تتابع قائلة: «كيف حال أسرتك؟ إنني أتذكر أختك كيثي: طويلة شقراء وماهرة في الألعاب».

ـ إنها متزوجة الآن. ما زالت أمي تعيش في بينينغتون، لكن أبي توفي عندما كنت في الجامعة.

نظرت روزا إليها بفضول: «آسفة. إنني أفهم الآن شعورك. أنت، إذن، ما زلت عازبة. أليس لديك حبيب؟».

وضحكت فجأة ثم تابعت: «بالنسبة إلى شكلك، أو بالأحرى شكلنا المتشابه، لا بد أن هناك رجلاً في حياتك».

أجابت هاربيت بمرح: «لا أحد حالياً.. وأنت؟».

فتألقت عينا روزا:

ـ تعرفت أخيراً إلى الرجل الذي لا تهمه أموالي. بعد صدمة مأساوية كنت

www.ewity.com

تلقيتها من قبل، أقسمت ألا أقع في الغرام ثانية. ثم تعرفت إلى «باسكال» بعد ذلك بأسابيع، فوقعت على وجهي في الحب، ولم أعد قادرة على الأكل أو النوم!

- وهل لديه نفس شعورك؟

فتنهدت قائلة: «يا ليتني أعلم! تعرفت إليه لأيام قلائل عندما كان يغطي أخبار مؤتمر في «هريتاج»، لكن لقاءاتنا منذ ذلك الحين أصبحت قليلة متباعدة. إنه مراسل لصحيفة فرنسية».

- آه... هل هذا هو سبب إلغاء موعدكما هذه الليلة؟

- نعم! كان عليه أن يسافر بعيداً لتغطية خبر هام، وإلا لما كنت هنا بين هؤلاء النسوة الزاعقات.. باستثنائك أنت، طبعاً! إنك لم ترفعي صوتك قط، كما أن هدوء أعصابك مخيف!...

وضحكت.

كشرت هاربيت مازحة:

- أتعنين مزاجية؟ كنت مراهقة صعبة الطباع للغاية، ولا بد أن أسرتي تنفست الصعداء عندما دخلت الجامعة. حصلت، بعد تخرجي، على وظيفة معلمة في «بريمينغهام». لكن أمي ساءت صحتها مؤخراً، ولهذا عدت لقضاء فترة معها.

ونظرت هاربيت إلى ساعتها وقالت: «آسفة يا روزا! لقد وعدت المديرة بأن أقوم بإقناع المتزوجين الشبان بأن مدرسة «روديل» هي المدرسة المثالية لبناتهم حالياً ومستقبلاً».

قلبت روزا شفتيها، ثم ترددت لحظة قبل أن تقول: «ما رأيك في تناول العشاء معي؟».

فوجئت هاربيت في البداية، إلا أن الفكرة ما لبثت أن أعجبتها، فأجابت: «لم لا؟ امنحيني نصف ساعة فقط».

تذكرت هاربيت ذلك كله، وهي إلى جانب ليو فورتيناري في السيارة، ثم تنهّدت بطريقة جعلته ينظر إليها بفضول ويسألها: «أتراني أسرع في القيادة

يا روزا؟ هل أنت خائفة؟».

رنت إليه بابتسامة مشرقة: «نعم!، ولكن ليس بسبب قيادتك.. إنني أتساءل فقط كيف سيكون لقاء «تونّا» بي؟».

وكانت هذه هي الحقيقة، كما أن جلوسها بجانب هذا الرجل الإيطالي الوائق من نفسه زاد الطين بلة. لكن ليو فورتيناري يجب أن يتوقع ذلك؛ إذ، حسب قول روزا، لم يكن فراقهما منذ سنوات على نحو ودّي.

عاد يحوّل انتباهه إلى الطريق وهو يقول: «أصبحت فتاة مختلفة الآن، يا روزا. كنت، في ما مضى، سريعة الغضب. إنما لا تخافي لأن «تونّا» صفحت عنك منذ وقت طويل. سنكون عندها بعد نصف ساعة».

نصف ساعة!

***

كان تناول العشاء مع روزا، بعد حفلة الخريجات، شيئاً ممتعاً بالنسبة لهاربيت. عندما كانتا تلميذتين لم يكن بينهما أي انسجام، لكنهما الآن شعرتا بتقارب كبير.

بعد تلك الليلة، أخذتا تخرجان معاً بانتظام، خصوصاً مع غياب حبيب روزا «باسكال» الذي جعلها تكثر من الذهاب إلى منزل أسرة هاربيت ملتمسة السلوى والعطف الذي وجدت منه الكثير عند والدة هاربيت.

قالت كلير فوستر لروزا عندما أحضرها هاربيت إلى البيت لأول مرة: «هذا شيء غريب! طبعاً رأيتك في المدرسة مرة أو اثنتين، لكن التشابه بينكما ازداد الآن بعد أن كبرتما!».

- لولا أن هاربيت أصغر حجماً وشعرها أجعد.

قالت روزا هذا بحسد وهي تقنع الأم بأن تأتي معهما لتناول الطعام. وعندما احتجت كلير قائلة إنها متعبة بسبب قضائها اليوم بطوله في خدمة أمها المقعدة، ذهبت روزا بنفسها وبأناقتها البالغة فاشترت طعاماً جاهزاً أخذن، هن الثلاث، يأكلنه في المطبخ ضاحكات مازحات كتلميذات مدرسة.

www.rewity.com

لم يمض وقت طويل حتى أصبحن، هن الثلاثة، على انسجام تام. صديقات الدراسة تزوجن وذهبن بعيداً، كما أن صديقات هاربيت في الجامعة استقرت بهن الحياة في لندن، لا تكاد الواحدة منهن ترى الأخرى، إلا نادراً، في حفلة أو عرس.

وهكذا ملأت روزا فراغاً في حياة هاربيت، لم تكن هذه تدركه حتى ليلة حفلة الخريجات تلك، فأخذت تشعر بالراحة في الإفضاء بهمومها إلى من يتعاطف معها. أما الأم «كلير» فكانت تنتظر إجراء عملية جراحية صغيرة في المستشفى، كما أن منزلها كان بحاجة ماسة إلى الترميم ولكن ما تحصل عليه هاربيت من عملها في الترجمة لا يسمح بذلك.

قالت هاربيت ذات مساء لروزا وهما تتناولان العشاء في مطعم صغير: «إن أمي مرغمة على بيع البيت!».

ـ هذا صعب جداً بالنسبة إليها، لا سيما وأنها مريضة! هل هي متأثرة لذلك؟

ـ جداً! فهو بيت الأسرة منذ أجيال، وهي بالغة الشغف به.

وفجأة، مالت هاربيت إلى الأمام، هامسة: «انظري إلى ذينك الرجلين اللذين ينظران إلينا هناك، هل تعرفينهما؟».

نظرت روزا إليهما ثم عادت تنظر إلى هاربيت غامزة بعينها: «هما فقط رجلان لفت نظرهما تشابهنا».

فأجابت هاربيت بحدة: «لا أظن ذلك! فنحن لسنا متماثلتين تماماً. أنا في ملابس المكتب الأنيقة، بينما أنت ترتدين بنطلون «جينز»».

ـ لكنه غالي الثمن، يا عزيزتي!

واحمر وجه روزا فجأة وتابعت معتذرة: «آسفة لعدم لياقتي!».

قالت هاربيت بهدوء: «لا تبالي بهذا الأمر».

ـ لكنني قلقة كثيراً في الواقع!

ـ بالنسبة إلى باسكال؟

فأجابت روزا متنهدة: «على الدوام. أما الآن فأنا قلقة على أمك وعليك.

ماذا سيحدث لجدتك إذا استأجرتما بيتاً أصغر؟».

ـ ستأتي معنا. إنها، حالياً، في جناح مستقل في الطابق العلوي، بينما نستعمل نحن بقية البيت. لكن فكرة انحشارنا جميعاً في شقة صغيرة تشكل لي كابوساً.

وارتجفت هاربيت باكتئاب: «لسبب ما، لم تكن جدتي تحبني! كانت «كيتي» هي المدللة عندها. لكنني كنت أشعر دائماً بالتعاسة... والذنب، لأنني لم أستطع أن أحب جدتي. كان ذلك شيئاً لا علاقة له بالسن إذ لا أعرفها إلا عجوزاً. إنها الآن قعيدة الفراش، وغالباً ما تشكو من الأوجاع!... مسكينة!».

ـ أظنها تكره الذهاب إلى مأوى العجزة.

ـ أمي هي التي لا تطيق سماع ذلك.

قالت روزا بحرارة: «أمك قديسة!».

ـ أكثر مما تتصورين.. يعلم الله كم صبرت عليّ أثناء مراهقتي.

ـ وأنا أيضاً لم أكن ملاكاً في تلك الفترة. ولكن ماذا كانت مشكلتك حينذاك؟

أجابت هاربيت متكدّرة: «التفكير فيها الآن يحرجني. لم أخبر عنها أحداً، حتى «غاي»».

ـ من هو «غاي» هذا؟

ـ صديق سابق.

ـ لماذا هو سابق؟

ـ إنه نائب المدير في المدرسة التي كنت أعلّم فيها في برمنغهام. وعندما تركت في نهاية سنتي الأولى لأساعد أمي، اعترض على ذلك قائلاً إن عليّ الاهتمام لأمره قبل أي شخص آخر.

ـ وهكذا ذهب «غاي»!.. هل ندمت؟

هزت هاربيت كتفيها: «لقد افتقدته في البداية، أو ربما افتقدت فقط الناحية الاجتماعية».

www.ewity.com
مكتبة روايتي

سألتها روزا بابتسامة ماكرة: «هل كانت علاقتكما جيدة؟».

ـ إذا كان ثمة تقصير في علاقتنا، فهو مني، يا روزا.

قالت روزا بحرارة وعيناها تتألقان: «أبداً! إذا لم تستطيعي التجاوب مع «غاي» فهذا ذنبه حتماً. على كل حال، ماذا كنت ستخبرينني مما لم تستطيعي إخباره به؟».

أجابت عابسة: «في سنوات مراهقتي، تمنّيت لو يتبنّاني أحد غير أهلي. كانت حياتي منغّصة على الدوام، وانعكس ذلك على حياة والديّ».

كانت إغاظة أختها لها في حداثتهما تملأ حياتها تعاسة. فقد كان أبوهما، «ألان فوستر»، رجلاً أشقر ضخم الجثة، وكانت «كيتي» تشبهه تماماً... بينما كانت الأم طويلة ممشوقة، كستنائية الشعر، ناصعة البشرة.

وأضافت هاربيت: «ثم أنا.. سوداء الشعر، داكنة البشرة، وأقصر من كل أفراد العائلة... وإن كنت برأس كامل! غير أن رأسي الكامل كان يلعب به طيش المراهقة. وهكذا أخذت «كيتي» تغيظني بقولها إنني «بديلة» بشعة من الجن الذين خطفوا ابنتهم الحقيقية، إلى أن أخذت أصدق ذلك!».

ـ ولكنك، بكل تأكيد، لم تكوني متبنّاة!

فابتسمت هاربيت بخجل: «لم أكن كذلك طبعاً. لديّ شهادة ميلاد قانونية تماماً. أما شكلي فما هو إلا نتيجة تفاعل غريب لعوامل الوراثة».

سكتت روزا لحظة، ثم قالت ببطء: «بما أنك ذكرت كيتي.. أنا أعلم أن هذا ليس من شأني، ولكن ألا تستطيع مساعدتكن مالياً؟».

ـ ليس ذلك ممكناً. فقد بدأ زوج كيتي بتأسيس عمل جديد، بعد أن أخذ قرضاً ضخماً من البنك. كما أن كيتي حامل ولذا تركت عملها... على كل حال، هذا يكفي بالنسبة إلى أخباري. حدثيني أنتِ عن باسكال. أما زالت أخباره منقطعة؟

***

كان هذا هو السؤال الذي انتهى بها إلى حيث هي الآن. أخذت هاربيت

تفكر بقنوط فيما كانت السيارة تقترب بها من المكان المقصود. أصبح واضحاً أن «باسكال تاڤيرنير» قد هجر روزا. لقد مرت الأيام وانقطعت أخباره.

قالت روزا بانفعال: «منذ ذلك الاتصال التليفوني الذي قال فيه إنه متوجه إلى الشرق الأوسط، لم أسمع منه كلمة. وفوق هذا كله، إذا بي أتلقى رسالة هذا الصباح من جدتي تدعوني إلى «توسكاني» لحضور عيد ميلادها الثمانين. اعتدت قضاء عطلتي الصيفية، في ما مضى، هناك، لكنني لم أعد إليهم منذ سنوات».

سألتها هاربيت بفضول: «لماذا؟...».

فتنهدت روزا وهي تجيب:

ـ كنت في حالة «ثورة دون سبب». ولأن «نونا» امرأة مستبدة من الدرجة الأولى؛ تصرفت بشكل سيء، وهي لم تغفر لي. وهكذا نُفيت من جنة عدن. طلبوا مني العودة إلى بلدي والبقاء هناك إلى أن أتوب عن خطاياي.

ـ وما الذي فعلته، بحق السماء؟

سكتت روزا لحظة، ثم قالت: «كذبت عليك قليلاً بقولي إن باسكال هو أول حبيب حقيقي لي. لقد تعلقت ذات يوم بابن خالي «ليو». أنت تعلمين أن أمي إيطالية وأبي إنكليزي. وأسرة أمي هي «فورتيناري». و«ليو» يدير كروم الأسرة».

ـ ثم ماذا؟

ـ أنا أخجل من التفكير في ذلك الآن، لكنني أخذت أتبع ليو في كل مكان كجرو صغير. كنت مزعجة أكثر مما كنته أنت، يا هاربيت.. صدقيني.

ـ أفهم من هذا أنه لم يتجاوب معك.

ـ على الإطلاق. لهذا قررت أن أثير غيرته بالعبث مع شخص آخر. كان ليو أكبر مني بعشر سنوات فلم يؤثر عليه شيء. ومن ثم خرج الأمر قليلاً عن السيطرة بالنسبة لتلك النقطة، وهكذا أعادتني «نونا» إلى بلدي موصومة بالخزي.

وهنا ارتجفت روزا بشكل غريزي وتابعت:

ـ عندما مات والداي، كانت هي مريضة فلم تستطع حضور الجنازة، لكنها أخذت تراسلني منذ ذلك الحين بانتظام. وها هي الآن، في هذا التوقيت الصعب بالنسبة إليّ حالياً، تطلب مني الذهاب إليها في «فورتينو» لحضور عيد ميلادها!

وتنهدت روزا وهي تحلّل شعرها الكثيف بأصابعها:

ـ هاريت، لا أستطيع أن أصف لك مقدار شوقي للصلح مع نونّا، لكنني لا أستطيع الذهاب.

ـ لماذا لا تستطيعين؟

أجابت روزا بوجه بالغ الشحوب وهي تبتلع ريقها فجأة:

ـ ليس قبل أن أسمع خبراً من باسكال. آسفة! أريد أن أذهب إلى «التواليت».

ثم اندفعت راكضة تاركة هاريت تحدّق في أثرها بذعر.

غابت روزا طويلاً، وعندما عادت أخيراً واستقرت في مقعدها، كان وجهها شاحباً قانطاً. والتعاسة التي نطقت بها عيناها، جعلت هاريت تضع يدها على يدها وتسألها بمودّة وحنان: «ماذا حدث؟ هل هو باسكال؟».

جذبت روزا نفساً عميقاً مرتجفاً:

ـ أنا أستحق هذا! منذ «ليو» أخذت أبتعد عن الرجال... ما عدا هذه المرة!.. يبدو أن باسكال نسي كل شيء عني!

شدّت هاريت على يدها بعطف: «على كل حال، يا روزا، ألغيه من القائمة. انسيه!».

قالت روزا بابتسامة مرتجفة: «القول أسهل من الفعل!».

أومأت روزا بيأس: «أخشى أن أذهب إلى ايطاليا فيأتي باسكال الذي سيسارع إلى السفر وهذا ما لا أقوى عليه صبراً لا أريد الذهاب إلى أي مكان فهو حب حياتي».

ـ هل أخبرت أخاك عنه؟

ـ لا أستطيع إخباره. إن رأس «توني» أشبه بصخرة. على أي حال،

زوجته «أليغرا» توشك أن تنجب له طفلهما الأول، وصحتها غير جيدة. ولذلك فإن مشكلتي هذه هي آخر ما يريدان التفكير فيه الآن.

اشتدت قبضة هاريت على يدها: «آسفة جداً لأجلك يا روزا! كيف أستطيع مساعدتك؟».

تلاقت عينا روزا السوداوان بعيني هاريت: «هل تذهبين إلى إيطاليا مكاني؟ تدّعين أنك أنا، وذلك مدة عطلة الأسبوع فقط؟».

جذبت هاريت يدها من يد روزا وهي تحدّق فيها غير مصدقة: «ماذا؟ أنت تمزحين؟».

قالت روزا بسرعة: «أنت الوحيدة التي يمكنها ذلك. أنت تشبهينني، وتتحدثين الإيطالية بطلاقة. كما أنهم هناك لم يروني منذ سنوات، ما عدا يوم الجنازة في بداية هذه السنة؛ وحينذاك كان وجهي مبللاً بالدموع وعيناي منتفختين من البكاء، ولم يميزني أحد على كل حال».

ومالت نحوها بسرعة: «إذا فعلت هذا لأجلي، يا هاريت، سأدفع أجرة عملية أمك «كلير»، وأصلح لكم البيت، وأخصّص لجدتك خادمة تذهب إليها يومياً».

وقفت هاريت متصلبة الملامح منتفضة لكرامتها المجروحة: «لن يحدث هذا أبداً! هناك أشياء لا يمكنك شراؤها بالمال، يا روزا!».

وفي الشارع، أمسكت روزا بذراع هاريت:

ـ أرجو ألا تغضبي.. لا أستطيع احتمال ذلك!.. اسمعي، منذ أسابيع وأنا أفكر في مساعدتكما، أنت وأمك، ولكنني كنت أعلم أنك لن تقبلي مالاً مني. أكره أن أرى أمك مرهقة معتلة الصحة بهذا الشكل. وأنت، أيضاً، تعملين طوال النهار ثم تعودين لمساعدتها في العناية بجدتك أثناء الليل. اعتبري هذا الأمر مجرد مبادلة بسيطة. أنت بحاجة إلى المال، وأنا لديّ الكثير منه. كل ما أطلبه منك هو قضاء يومين أو ثلاثة في «فيلا كاستيغليون» بصفتك «روزا موستين». سأجهز الملابس وكل ما تحتاجينه. ومقابل ذلك سأطلب من أخي أن يرسل رجال الصيانة في «فندق تشسترتون» إلى بيتكم، ثم آخذ أمك

إلى المستشفى على الفور.

رفضت هارييت، وقد تملكها الغضب، رفضت البتَّ في الأمر. إنما، في ما بعد، وجدت روزا في والدة هارييت حليفاً لم تتوقعه. فبعدما استمعت الوالدة إلى قصة روزا الصغيرة المحزنة، وبدلاً من أن تساند ابنتها في سخطها، ذكَّرتها بأنه لم يمض وقت طويل على شكواها من رتابة الحياة في «بينينغتون».

قالت تخاطبها بلهفة: «إنه أمر يبعث على التسلية! لو كنت مكانك يا حبيبتي، لانطلقت في هذا الأمر. يا لها من مغامرة!».

فقالت هارييت بجفاء: «ومغامرة مفيدة لأسرة فوستر، طبعاً!».

أجفلت الأم، فأسرعت روزا إلى إمساك هارييت من ذراعيها وهي تحملق فيها:

ـ كيف تقولين مثل هذه الأشياء المؤلمة لأمك؟ حتى لو كان قولك صحيحاً، ليس في الأمر ما يعيب! أنت محظوظة لأنه ما زال لديك أم. وكان عليك أن تقفزي فرحة لهذه الفرصة التي واتتها.

ثم أخذت روزا تبكي بمرارة، دافنة وجهها في كتف الأم، وهذا جعل هارييت تصاب بالذعر وتشعر بالذنب وهي ترى أمها تواسي روزا. بعد برهة، اعتدلت روزا في جلستها وهي تمسح عينيها وتعتذر:

ـ آسفة لهذا المشهد! على كل حال، كانت فكرة سخيفة! انسيها يا هارييت!

ثم التفتت إلى الأم: «اسمعي، تعلمين بأنني أصبحت مولعة بكما، أنتما الاثنتين؛ لهذا دعيني أدفع أجرة العملية وإصلاح المنزل على كل حال، يا كلير! أرجوك؛ لا أريد لقاء ذلك سوى السماح لي بزيارتكما على الدوام».

قالت هارييت بجفاء: «ألن يعترض أخوك على إرسال عماله؟».

ـ على الإطلاق!.. ما دمت أنا أداوم على تفقد الفندقين وأعفيه بذلك من صرف انتباهه عن «أليغرا». إن توني مدين لي بذلك.

لدى عودتها من إيطاليا مسربلة بالفشل، كان عزاؤها وظيفة في الفندق الثاني الذي تملكه أسرتها في الريف وهو «فندق هرميتاج». لقد أغضبت أباها،

«هاو موستين»، تلك الرسالة التي تلقاها من حماته بشأن ابنته فسببت شرخاً لا يلتئم. وهكذا دفع ابنته إلى مطبخ الفندق. ومن هناك أخذت ترتقي بنفسها متخذة أعمالاً مختلفة، إلى أن أرسلها والدها أخيراً لتلقي دورة تعليمية في إدارة الأعمال.

قالت كلير بلطف: «روزا! لماذا انتظرت جدتك كل هذا الوقت الطويل قبل أن تطلب منك العودة؟».

ـ لأنني رفضت، بخشونة، التوبة والاعتذار. كما أنني لم أحتمل فكرة العودة إليهم مرة أخرى. لقد تبت بعد ذلك؛ لكن وقت الاعتذار كان قد فات بعدما تماديت في الحماقة والعناد!

قفزت هارييت عند سماع رنين جرس الجدة، وهي تقول: «إبقي مكانك، يا أمي!».

كانت الجدة تريد كلير، كالعادة، لكن هارييت أخبرتها بأن أمها متعبة. وبعد أن ساعدت جدتها على قضاء حاجتها، أسندتها في سريرها ووضعت بين يديها نظارتيها والكتاب، ثم أعطتها دواءها مع كوب ماء. بعد ذلك، أدارت لها جهاز التلفزيون إلى أن شعرت الجدة بالرضى، فنزلت هارييت إلى الطابق السفلي وقد استغرقت في تفكير عميق. إن أمها، رغم سوء صحتها، تقوم بهذه المهام عشرات المرات يومياً؛ هذا بالإضافة إلى غسيل الثياب، والتسوّق، والطهي! وتملك هارييت شعور مفاجىء بالذنب. كل ما يحتاجه الأمر، لتسهيل هذه الحياة على أمها، هو رحلة قصيرة إلى إيطاليا التي تحبها، مدّعية بأنها روزا موستين وذلك ليومين أو ثلاثة!

وقفت هارييت أسفل السلم تنظر إلى نفسها في مرآة الردهة. حدَّقت طويلاً في صورتها ولم تنكر أنها نسخة طبق الأصل عن روزا. تباطأت خارج باب غرفة الجلوس، تستمع إلى روزا تتحدث إلى الأم بصوت أبحّ هو صوتها ذاته!

انتظرت هارييت دقيقة دفعت بعدها الباب، وهي تقول قبل أن تغير رأيها:

ـ لا بأس يا روزا! سأفعل ما تريدين. ربما أكون مجنونة، وأنا واثقة من أنني سأندم بعد ذلك. ولكن، كما قالت أمي، هي مغامرة! وبما أنني لن ألحق أي ضرر بجدتك، لهذا سأدعي أنني حفيدتها المحبوبة، وذلك ليوم أو اثنين... ولكن لمرة واحدة فقط يا روزا؛ وبعد ذلك عليك أن تخبريها.

***

٢ ـ الغلط ممنوع

ازداد توتر هاريت والسيارة تصعد بهما في طريق يدور حول التل. دخل ليو فورتيناري، من خلال طريق تحيط به الأعمدة الحجرية إلى حدائق الڤيلا. لم توقفت السيارة عند درجات قديمة تؤدي إلى شرفة. بعد نظرة من «ليو» إلى وجهها المتوتر، وضع يده برقّة على كتفها قائلاً: «تشجعي يا روزا!».

تملكها الذعر وهي تشعر بلمسته تسري في كيانها. جمدت في مكانها لتخفي انفعالها، وعيناها مسمرتان على المبنى المؤلف من طابقين. كان المنزل مألوفاً لديها من الصورة التي رأتها له، كما هي الحال مع ليو فورتيناري. ولكن، بعكس الرجل الجالس بجانبها، كان المنزل أصغر مما توقعت، قديماً ورائع الجمال، مبنياً بالحجر الملذهب، تحيط بجهاته الثلاث شرفة مقنطرة.

قال ليو باختصار: «قبل أن ندخل، لا تفعلي شيئاً يا روزا هذه المرة، من شأنه أن يكدّر الجدة. إنها شجاعة، كعادتها، لكن صحتها ساءت مؤخراً. لقد أصرت على أن تعودي لرؤيتها مرة أخرى لأنها تعتقد أن حياتها أصبحت قصيرة. لا تفعلي شيئاً يقصرها! مفهوم!».

نظرت إليه هاريت بازدراء، وقد تملكها الغيظ للهجته المستبدة: «لم يتغير شيء إذن! ما زلت تحملني على الأسوأ!».

كان هذا هو اعتقاد روزا، وحتى الآن لم يفعل «ليو» ما ينقض ذلك.

أطلق ضحكة قصيرة، خالية من السرور: «هل تلومينني؟».

لم تقل هاريت شيئاً. «إذا تملكها الشك، عليها أن تلوذ بالصمت

www.liilwity.com منتديات

والغموض». هذه كانت تعليمات روزا؛ وربما كانت معقولة... نزلت هاريت من السيارة قبل أن يلمسها ليو مرة أخرى ليساعدها، ثم علقت حقيبة روزا الجلدية الثمينة في كتفها وتبعته إلى الداخل.

أقبلت نحوهما امرأة باسمة، صغيرة الجسم، تعبر الردهة الباردة المبلطة بالرخام، وحيّت ليو بكلمات إيطالية هامسة، وبلهجة محلية كان على هاريت أن تركز ذهنها بشدة لتفهمها.

أضافت المرأة بصوت خافت: «أهلاً بك، يا آنسة روزا! لا بد أنك متعبة. سأحضر القهوة قبل أن آخذك إلى غرفتك. السيدة نائمة وسترينها في ما بعد».

وعندما ذهبت المرأة، قال ليو: «بالطبع، تتذكرين «سلفيا»!».

ـ لا! إنها جديدة. لم تكن هنا عندما غادرت آخر مرة.

حمدت هاريت الله عندما أشار ليو إليها بدخول غرفة كانت روزا وصفتها لها بدقة جعلت ما تراه من اللوحات الفنية والمرايا المذهبة والأثاث المنحوت، شيئاً مألوفاً. جلست على أريكة مكسوة بغطاء مخملي أحمر وهي تشعر بلهفة للانتهاء من مهمة الاجتماع بالسنيورا. ولكن مما هي خائفة؟ فلن يلاحظ أحد اختلافاً، ما دام ليو نفسه لم يلاحظ ذلك.. هكذا أخذت تخفف عن نفسها. كانت روزا قد أطلعت هاريت على مجموعة من الصور والرسائل، وأخبرتها كل ما تذكره عن أسرتها من التفاصيل التي سجلتها هاريت في دفتر خاص وأخذت تقرأها ليلة بعد ليلة حتى حفظتها عن ظهر قلب.

جلس ليو وهو ينظر إليها متفحصاً: «كم تبدين هادئة! لقد غيرك النضج، يا روزا! أصبحت أكثر نحافة، كما أن شعرك أصبح جعداً!».

ـ إنها مهارة الحلاق، هل أعجبك؟

توترت شفتا ليو: «تعلمين جيداً أنك رائعة الجمال، يا روزا».

خفضت هاريت بصرها إزاء نظراته الهادئة المتفحصة، ثم عادت فرفعته باسمة، شاكرة لسلفيا دخولها بصينية واسعة عليها القهوة وطبق بسكويت،

فوضعتها ثم اندفعت خارجة بسرعة لتساعد النساء في الإعداد لحفلة الغد.

قال وهو ينظر إليها تسكب القهوة: «لقد كنت نسيت تلك اللكنة الخفيفة الساحرة في حديثك، يا روزا».

كانت روزا أخبرتها بأن ليو يفضل القهوة دون حليب، لكنها قدمت له الشدة وهي تنظر في عينيه، قائلة: «منذ إبعادي عن هذا المكان، لم أعد أستعمل اللغة الإيطالية كثيراً، رغم أنني أحتاجها في عملي».

ـ وأراك نسيت أنني أتناول القهوة سوداء وحلوة! ما الذي نسيته أيضاً، يا روزا؟

أجابت بجفاء: «كل ما استطعت نسيانه. هل تريد بسكويت؟».

هز ليو رأسه واستند إلى الخلف، وهو يراقبها من خلال بخار القهوة.

ـ هل أعجبك العمل في فندق هرميتاج؟

ـ أكثر مما توقعته في البداية.

نظر في عينيها بقسوة: «كانت لديك، في ما مضى، طموحات أخرى!».

هزت هاريت كتفيها: «أتعني عرض الأزياء؟ كانت مجرد أحلام فتاة مراهقة! لقد شفيت من ذلك كله!».

فضاقت عيناه: «أحقاً؟ كان جمالك يكفي لتلك المهنة. وكذلك الآن بعد أن أحدث فيك الزمن بعض التغييرات».

قال ذلك وهو يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها بنظرات بدت وكأنها تسجل كل شيء، من صباغ شفتيها، إلى مقاس حذائها.

أشاحت هاريت بوجهها لتملأ كوب قهوتها، متمنية أن يعفيها «ليو» من وجوده ويخرج إلى كرومه الشهيرة التي تعرف أنها بعيدة عن الفيلا عدة كيلومترات.

سألته بأدب: «كيف حال ميريلا ودانتي؟».

ـ أصبح دانتي ساعدي الأيمن منذ تقاعد أبي. وميريلا، كما تعلمين، متزوجة الآن؛ وهي حامل بطفلها الأول. وكذلك زوجة توني على وشك الولادة كما سمعت.

وانحنى يضع كوبه الفارغ على الصينية. . أومأت هاريت قائلة: «قد يحدث ذلك في أي لحظة. ولعل هذا ما يفسّر عدم مجيئهما إلى حفلة عيد ميلاد نونّا».

ـ أرجو لها أن تلد بالسلامة. إن صحة ميريلا جيدة جداً والحمد لله.

ثمّ نظر إليها عاتباً: «أنت لم تحضري عرسها!».

ضايقها ذلك، فقالت غاضبة: «السبب واضح!».

ـ أتعنين أنك كنت خائفة من القدوم؟

هزّت كتفيها: «طبعاً!».

سألها مائلاً نحوها: «لو أن نونّا كانت وجهت إليك دعوة بنفسها، هل كنت تلبّينها أم كنت ستخافين مقابلة أصدقائك القدامى؟».

«. . . كفى تخويفاً للصغيرة!». . كان هذا صوتاً آتياً من مدخل الغرفة. نهض ليو واقفاً، وتبعته هاريت بسرعة، وقلبها يخفق. كانت المرأة المتجهة نحوها ترتدي «طقماً» كحلياً من الكتان، متقن التفصيل، وقد خَطّ الشيب شعرها الأسود، المصفّف بترتيب. كذلك كان «ماكياج» وجهها متقناً فبدت في شيخوخة رائعة مهيبة. أخذت هاريت تحدق فيها بصمت، جاهدة في السيطرة على نفسها بينما فتحت لها فيكتوريا فورتيناري ذراعيها، واغرورقت عيناها الكبيرتان بالدموع، فعانقتها هاريت شاعرة بالذنب.

قالت السيدة وهي تهتز وتمسك بهاريت تبعدها عنها لتتأملها: «روزا، ما أجملك!».

وسكتت لترفع منديلاً إلى عينيها، ثم تابعت مستدركة: «يجب ألا أبكي، وإلا فسد الكحل!».

وابتسمت السيدة مازحة، ما جعل هاريت تبتسم بدورها.

أجلستها «السنيورا» بجانبها على الأريكة، ثم ابتسمت لليو الذي كان يراقبهما بنظرات ثاقبة.

ـ شكراً لإحضارك روزا إليّ، يا ليو!

ـ وحيث أنني أنهيت مهمتي هذه، يا نونّا، عليّ أن أعود إلى «فورتينو».

قالت الجدة بوداعة: «بما أنني كلفتك كثيراً، عد لتناول العشاء معنا يا ليو».

شعرت هاريت بالذعر، ولاحظ ليو ذلك، فقال باسماً وبشيء من السخرية: «إذا لم تعترض روزا على هذا، طبعاً!».

فقالت هاريت كاذبة: «بل هذا يسرني!».

قالت الجدة بلطف وارتياح: «هذا حسن! أحضر معك دانتي، يا ليو. سيطلف لرؤية روزا مرة أخرى».

قال ليو لجدته وهو يقبل يدها: «كما تشائين، يا نونّا، ولعله من الأفضل أن ترتاحي هذه الليلة لتستعدي لحفلة الغد».

فقالت برقة: «لكنك لست دوماً على صواب، يا ليو!».

قبل ليو فورتيناري هذه الوخزة، رافعاً يده مودعاً بكلمات تشمل هاريت دون تخصيص، ثم خرج.

ـ والآن، أخبريني كل شيء عن نفسك، يا صغيرتي!

قالت الجدة ذلك بلهفة وسرور.

قالت هاريت بسرعة، متبعة تعليمات روزا: «دعيني، أولاً، أقدم اعتذاري. أنا أعلم يا نونّا أن هذا كان ينبغي أن يكون منذ وقت طويل، لكنني آسفة للغاية لما حدث!».

فقالت الجدة باتزان، وهي تمسك بيد هاريت: «كذلك كان عليّ أن أكون أكثر تسامحاً وتفهماً. فلنترك الحديث عن هذا الأمر، أنت هنا الآن يا روزا، وهذا هو المهم. الكبرياء شيء فظيع! كان عليّ أن أسوّي الأمور مع والدك وألا أدع ليو يؤثر عليّ بآرائه. كان يصر على أن رؤيتك مرة أخرى ستعيد فتح الجروح وتؤثر على صحتي. لكنه كان مخطئاً، فالحياة أقصر من أن تنقضي في مثل هذه الحماقات. ومن يعلم ذلك أكثر منك يا صغيرتي؟».

أومأت هاريت برأسها موافقة وهي تفكر في والدي روزا، بينما بدت الجدة متعبة متهالكة للحظة قبل أن تعود فتستقيم، محاولة الابتسام: «والآن، أخبريني يا روزا. هل أحضرت معك ثوباً جميلاً للحفلة؟».

اعترفت هارييت بأنها أحضرت أكثر من واحد. لقد جهزتها روزا بثوبين رائعين لم تلبسهما سوى مرة واحدة.

بعد أن أخبرت الجدة بكل شيء عن حياة روزا موستين وعملها، محاذرة الإشارة إلى باسكال تاڤيرنيير، حدثتها عن صحة «أليغرا» موستين المزعزعة. قائلة: «إن تولي يدفع كل شخص إلى الجنون، بما في ذلك زوجته أليغرا، لأن قلقه عليها لا يحتمل».

- لن تحسن أبداً أن تقرر بشأن الحمل والولادة، وإلا لكان الجنس البشري انقرض منذ زمن طويل.

ضحكت هارييت، وما لبثت أن تثاءبت، فربتت الجدة على يدها بعطف: «لقد نقلت سلفيا أمتعتك إلى غرفتك، فاصعدي لتستحمي وترتاحي قبل العشاء يا صغيرتي. فأنت متعبة. أما أنا فسأدخل المطبخ لأشرف على كل التجهيزات للغد. عشاء اليوم سيكون بسيطاً بارداً».

- سيسرني ذلك.

قالت هارييت هذا وهي تصحب «السنيورا» عبر الردهة المربعة. كان السلم يصعد إلى حيث غرفتها الشبيهة بمعرض للفنون. قالت الجدة وهي تقبل وجنتها:

- اصعدي إلى غرفتك القديمة يا حبيبتي. نامي إذا استطعت. ستتناول العشاء في الثامنة.

صعدت هارييت السلم ببطء. وإذ أدركت أن السنيورا تراقبها مبتسمة بشغف، أخذت تدعو الله بأن يساعدها في العثور على الغرفة التي كانت روزا تقيم فيها. وتبعاً لتعليمات روزا، انعطفت هارييت يساراً عند رأس السلم، ثم عدّت ثلاثة أبواب إلى اليمين لتجد بابا مفتوحاً، ظهرت من خلاله أمتعة روزا موضوعة على الأرض أسفل السرير المزخرف في غرفة كان كل ما فيها كما وصفته روزا تماماً. أغلقت هارييت الباب خلفها واستندت إليه وهي تتنفس الصعداء، حتى الآن كل شيء حسن! لقد اجتازت عقبتين فقط، وما زال هناك دانتي وميريلا. لكن روزا كانت واثقة من أن لا مشكلة بالنسبة إلى

شقيق ليو الأصغر وشقيقته، فقد أنذرتها بأن أخطر شخص هو ليو نفسه. أبت هارييت نفسها على ما أظهرت من استياء عندما دعته جدته إلى العشاء معهما. لقد سخر «ليو» من هذا الموقف! تباً له! أما وقد تقبلتها الجدة دون تردد، بدا لها أن روزا كانت على صواب. ذلك أن ليون هو الخطر الرئيسي.

نصحتها روزا بألا تعقد صداقة مع ليو وشددت على أن تبقى بعيدة عنه قدر المستطاع، لأن هذا ما كانت ستفعله روزا. ويا ليتها فعلت! أخذت هارييت تفكر في ذلك بضجر، شاعرة بالسرور وهي ترى أن سلفيا قد أفرغت حقيبة ملابسها. أقفلت الحمام على نفسها، وشعورها بالذنب يتصاعد، ثم اتصلت بأمها تليفونيا. وبعد أن طمأنتها بسرعة، وعدتها بالاتصال في اليوم التالي طالبة منها إخبار صديقتها بذلك.

بعد الحمام والراحة في السرير، شعرت هارييت بتحسن واضح. وقفت لي النافذة ملتفة بمعطفها المنزلي، مستمتعة بالمناظر الرائعة، ويوحدتها في تلك اللحظة. لقد كانت أمضت زمناً في «سيينا» أثناء دراستها اللغة الإيطالية، فوقعت في غرام إيطاليا منذ لحظة وصولها إليها. أعاد المنظر من «ڤيلا كاستيغليون» إشعال غرامها ذاك وهي تتأمل التلال المغمورة بالظلال البنفسجية. كانت القرية تبدو مجموعة من الجدران الكهرمانية والسقوف الملتفة حول كنيسة ذات برج عال أخذ جرسه يدق. استمعت هارييت بسرور وارتياح وهي تتنشق شذا «توسكاني».

عندما أخفى ظلام الليل ذلك المنظر البديع، تركت هارييت النافذة ثم أشعلت المصابيح وفتحت الخزانة المزخرفة وأخذت تنظر إلى الملابس التي أعدتها روزا. الجينز الذي كانت لبسته مع سترة خفيفة للسفر، هو من نوع ما اعتادت هي لبسه إنما من قماش أغلى ثمناً. لكن الثياب الرسمية كانت لدى روزا مختلفة عما اعتادت عليه هارييت. ارتدت ثوباً طويلاً من الصوف الأصفر يبلغ الكاحلين ويضيق عند الركبتين. أضافت هارييت إليه سترة مناسبة لإخفاء طرازه الضيق، ثم زيّنت وجهها وكحّلت عينيها كما أوصتها روزا، ولبست حذاءً عالي الكعب. ثم رفعت يدها المثقلة بخاتم روزا الذهبي

بفَصّه اللؤلؤي تحيي صورتها في المرآة بسخرية.

عندما نزلت هاربيت إلى الطابق السفلي، اختلست نظرة إلى غرفة الطعام التي كانت جاهزة للعشاء. ثم اجتازت الردهة لتجد جدة روزا متربعة على الأريكة المخملية وبجانبها صينية قهوة. هتفت الجدّة لمرأى هاربيت: «روزا! يا للأناقة!».

قالت هاربيت وهي تنحني لتقبل وجنتها: «وكذلك أنت، يا نونّا!».

ـ تعالي اسكبي لنفسك فنجان قهوة واجلسي إلى جانبي بانتظار العشاء.. أخبريني عن توني وعروسه. هل تحبينها؟

حدثتها هاربيت بكل ما تلقنته عن توني وأليغرا اللذين لا تعرفهما، ولهفتهما إزاء طفلهما الأول. ثم سكتت لتأكل قطعة بسكويت عاقدة العزم على ألا تغلط بأي كلمة، قالت الجدة: «أنت جائعة يا صغيرتي! كان عليك أن تطلبي من سلفيا شيئاً تأكلينه».

ـ لم أرغب بغير القهوة عند وصولي، كما أنني لا أستطيع الأكل في الطائرة. إنني أكره السفر جواً.

بدت الدهشة على الجدة: «أحقاً، يا حبيبتي؟! كنت تحبين ذلك في طفولتك!».

فقالت هاربيت بحذر: «لم أعد أحبه هذه الأيام!».

وسكتت فجأة وهي ترى عيني الجدة تغرورقان بدموع مفاجئة، وهي تقول: «هذا طبيعي، يا روزا! سامحيني!».

ورفعت منديلها إلى عينيها.

امتدت ذراعا هاربيت إليها بحركة تلقائية فعانقتها الجدة. بقيتا دون حراك لعدة ثوانٍ، وقد تملكهما ندم عميق، لسببين مختلفين، عند ذكر موضوع الرحلة الجوية.

ـ مساء الخير.

ابتعدت هاربيت بسرعة، لترى ليو يقترب منها على السجادة الجميلة، مرتدياً ملابس غير رسمية إنما بالغة الأناقة، وكان قميصه المفتوح العنق تحت

السترة الكتانية أغمق لوناً من السترة الكتانية. رمق هاربيت بنظرة يطيئة مليئة بالعطف، اخترقت عينيها أخيراً واستقرت هناك.

قالت الجدة بحرارة: «أنا معك في أن روزا تبدو رائعة هذا المساء، إنما كفّ عن التحديق إليها! لقد تأخرت!... ثم أين دانتي؟».

حوّل ليو نظراته عن هاربيت بجهد واضح، ملتفتاً إلى جدته: «عفواً، يا نونّا. دانتي يقدم اعتذاره. لقد انشغل في «أريزو» وسيعود متأخراً إلى البيت. لكنه وعد بأن يبكر في القدوم إلى هنا مساء الغد».

وانحنى يقبل وجنة جدته ثم التفت إلى هاربيت: «لقد غيرتك الراحة، يا روزا!».

أجابت بهدوء: «شكراً!».

قالت الجدة وهي تدق جرساً فضياً صغيراً: «لكنها جائعة! فلنذهب إلى المائدة».

صدرت عن هاربيت همهمة استحسان وهي تشم رائحة مرق اللحم الشهية. كان المرق أول ما قدم إليهم من الوجبة التي أنذرتهم الجدة بأنها ستكون بسيطة نظراً لانشغالهم في المطبخ.

قالت الجدة بعطف، فيما هاربيت تلتهم اللحم: «كنت دائماً تحبين هذا النوع من الطعام!».

وقال ليو: «عجيب أن تحتفظي برشاقتك ولديك هذه الشهية! كنت في السابق أكثر امتلاء!».

ـ لأنني أقوم بعمل شاق!

سألها ليو وهو يملأ لها كوب الماء: «هل توني بهذه القسوة لكي يتركك سجينة بفندق الهرميتاج؟».

انتبهت إلى أن الجدة تنتظر جوابها باهتمام بالغ، فقابلت نظراته بهدوء قائلة: «لا، مطلقاً! ليس لأحد حكم عليّ سوى نفسي. عندما توفي والداي، ورثت عنهما مبلغاً وافراً، وأنا واثقة من أنكم تعلمون هذا. إنني أدير عمل الأسرة لأنني أرغب بذلك، وليس لأنني مرغمة. وحالياً، بينما توني بالغ

www.rewity.com

القلق على أليغرا، أوزّع نفسي بين الهرميتاج في الريف والنشسترتون في المدينة لكي أمنحه مزيداً من الوقت مع زوجته».

أومأت الجدة باستحسان: «أخبرني توني في رسالته أنه شاكر لك هذا جداً».

هز ليو رأسه بإعجاب ساخر: «من الصعب التصديق بأن روزا الصغيرة الطائشة قد تغيرت إلى مثل هذه المرأة الشاعرة بالمسؤولية!».

نظرت جدته إليه ببرودة: «حان الوقت يا ليوناردو لكي نترك الماضي خلفنا، ونستمتع بالحاضر. ما أقل ما بقي لي من الحياة!».

قالت ذلك وهي تضع يدها على قلبها بحركة مسرحية. فقال يطمئنها: «بل ستعيشين حتى تبلغي المئة يا نونا!».

لكنه منذ تلك اللحظة تبدل سلوكه بدرجة ملحوظة ليصبح أقل عداء لحفيدتها. أخذت هاربيت تفكر في أن ما حدث من روزا في مراهقتها ما زال يعتمل بمرارة في نفس «ليو» حتى الآن. وحيث انه تأثر بكلام جدته، فقد أخذ يساعد المرأتين على سكب شرائح اللحم في طبقيهما، تقبلت هاربيت اهتمامه بها بأدب، لكنها أصغت باهتمام إلى حديثه عن آخر إنتاج كرومه.

استند ليو إلى ظهر كرسيه قائلاً: «أنت إذن، يا روزا، عون كبير في إدارة امبراطورية موستين!».

كان التعب قد أخذ يتملك هاربيت. إنها تتكلم الإيطالية بطلاقة كافية. لكن قضاء المساء كله في التحدث بلغة أجنبية، وتقليد شخصية روزا دون خطأ، أتعبها وأخذ يظهر للعيان. تمالكت نفسها وقالت: «لا يمكن تسمية فندقين امبراطورية».

ـ هذا صحيح! لكنهما ناجحان ومقصودان من الزائرين الأجانب لما يجدونه فيهما من راحة ورفاهية. ربما سآتي يوماً ما، وأنزل في الهرميتاج، مجرباً ضيافة آل موستين بنفسي!

ـ بكل ترحيب!

قالت ذلك وكلها ثقة بأن روزا سيسرها استضافته، وهي فكرة أحدثت

لديها وخزة مفاجئة أرجعتها إلى سوء الهضم.

«طلبت الجدة من سلفيا إحضار القهوة إلى غرفة الجلوس. ثم قالت تحدث ليو وهو يساعدها على الوقوف لمغادرة المائدة: «أحضرت روزا معها ثوباً جميلاً لترتديه في حفلتي».

أجاب وهو يلقي على هاربيت نظرة ملتهبة كان لها تأثير عميق في نفسها: «لا يمكن أن تبدو أجمل مما تبدو عليه الآن!».

قالت الجدة: «هذا صحيح! لكن الغد هو مناسبة خاصة!».

حوّلت هاربيت نظراتها عن ليو بجهد، وهي تقول: «ولذلك أحضرت معي لوبين. وغداً يمكن لنونا أن تختار أفضلهما في نظرها».

ذهبوا بعد العشاء إلى الصالون لتناول القهوة تحت السقف المزين بالرسوم الرائعة.

قال ليو بعفوية وهو يتبع نظرات هاربيت: «كنت دائماً تحبين هذه الرسوم، وكنت مولعة بإحداها خاصة».

قالت هاربيت وهي تشكر روزا في سرّها لتذكرها هذا: «إنه نافخ البوق وهو ينفخه في أذن صديقه».

قالت الجدة بحنان: «أنت متعبة يا حبيبتي. اشربي قهوتك ثم اصعدي إلى غرفتك لكي تكوني منتعشة متألقة في حفلتي غداً».

جاء صوت سلفيا من ناحية الباب: «سنيورا! هل تتفضلين بالقدوم؟».

قالت سيدتها متنهدة، بينما ليو يساعدها على الوقوف: «إنها مشكلة أخرى!».

ـ سأبقى في تكريم روزا إلى حين رجوعك.

تلقت هاربيت هذا الخبر بشعور مختلط، راجية أن تُحَلَّ المشكلة في المطبخ بسرعة، قبل أن يجعل ليو لسانها يزلّ بشكل ما. وسرعان ما بادرها: «ما رأيك في الخروج إلى الهواء الطلق؟.. حتى البدر يحتفل بعيد ميلاد نونا!».

رحبت هاربيت بفكرة الاستمتاع بمنظر البدر، وخرجت أمامه تتكىء على «درابزين» الشرفة تسرّح نظرها في المشهد الليلي الساحر. كانت التلال

تسبح في ضوء البدر الفضي المتألق، لكن نقاباً شفافاً من الضباب أضاف لمسة سماوية إلى القرية تحتهما.

قالت بهدوء: «لقد نسيت هذا الجمال البالغ!».

وكان هذا صحيحاً. ففي كل مرة كانت تعود إلى شمال إيطاليا أبان دراستها، كان إحساسها هو نفسه.

فقال ليو برقة: «وأنا أيضاً كنت نسيت مبلغ جمالك، يا روزا! لقد تغيرت كثيراً حتى أصبح من الصعب التصديق أنك سببت لي ذات يوم، وليس لي فقط، كثيراً من المتاعب!».

ـ كنت صغيرة جداً، يا ليو، لم أعد تلك الفتاة نفسها. من حسن الحظ طبعاً أنني تغيرت.

قال بصوت أبح وهو يزداد اقتراباً منها: «هذا حسن جداً! حسن إلى حد يمكننا فيه أن نتعانق ونصبح صديقين!».

***

٣ ـ خطر لا يمكن تجنبه!

كانت روزا غامضة بعض الشيء لا سيما بخصوص متاعبها مع ليو. لكن عندما وصل الأمر بينهما إلى حد العناق تراجعت هاربيت إلى الخلف، متجنبة مواجهة المزيد من المشاكل باسم روزا.

ـ ألا توافقين؟

سبّب صوته لها رجفة لم يستطع ثوبها الملتصق بجسمها أن يخفيه. أماحت بوجهها بسرعة، وتمسكت بالدرابزين الحجري الذي كان يبرّد يديها الساخنتين.

قالت ببرودة لاذعة: «لا أريد ألاعيب، من فضلك يا ليو! لم أعد في السابعة عشرة!».

أجاب هامساً وهو يقترب منها من الخلف: «نعم، هذا صحيح!».

حاولت هاربيت جاهدة السيطرة على تنفسها وهي تشعر باقترابه منها، وأجفلت عندما شعرت بأنفاسه على شعرها فقد وضع يديه على جانبيها من الدرابزين مانعاً إياها من الهرب.

همس يقول: «حان الوقت لنسيان الماضي، حسب قول نونا... وللصفح أيضاً. الحاضر أكثر جاذبية بكثير، يا روزا!».

أجفلت عندما طوقتها ذراعاه من الخلف.

ولفت هاربيت دون حراك، منحنية الرأس، متشبثة بالدرابزين في محاولة للسيطرة على حواسها الثائرة وعواطفها المشتعلة، والبقاء هادئة غير متجاوبة. «ما أحلت تحدث نفسها بعنف، وهي تسيطر على كل عضلة وعصب مرتجف

www.rewity.com منتديات رواية

في جسمها، مقاومة أية رغبة في الاستدارة إليه والاستسلام لعناقه.

بدا وكأن دهراً مضى قبل أن يقتنع ليو بالرسالة التي أرادت أن يفهمها وهكذا ابتعد عنها أخيراً وهو يتنفس بصوت مسموع مستنداً إلى أحد أعمدة الشرفة، عاقداً ذراعيه على صدره. رأته هاربيت، من طرف عينها، يحدّق إلى المنظر أسفل الشرفة، وقد بدا جانب وجهه صلباً بارداً كالرخام، في ضوء القمر.

قال بخشونة: «عندما كنت صغيرة، كنت ترغبين في مغازلتي، يا روزا!».

لكن هاربيت شعرت بالرغبة فيها الآن. وقد أخرسها هذا الاكتشاف.

تابع يقول وكأنهما يتحدثان عن الجوّ:

ـ كنت، حينذاك، أكثر الفاتنات إلحاحاً. وذات مرة هدّدت بقتل نفسك إذا استمريت في تجاهل عواطفك.

ـ كان ذلك ابتزازاً عاطفياً. هياج هرمونات سن المراهقة! فأنا، كما ترى، لم أنفّذ تهديدي!

ـ وهذا ما يجعلنا جميعاً شاكرين، يا روزا!

ـ وهل أنت كذلك؟

ابتسم ليو، وافترّ ثغره عن أسنان بدا بياضها في الظلمة الخفيفة: «إذا أنت حاولت إغرائي الآن، فسأكون أكثر استعداداً للقبول!».

كبحت هاربيت رجفة تملكتها لهذه الفكرة، فقال على الفور: «هل تشعرين ببرد؟ دعيني ألبسك سترتي».

أجابت بسرعة وهي تستدير إلى الباب المفتوح: «لا. دعنا ندخل».

وفي الداخل، على ضوء مصابيح الصالون، استعادت هاربيت تماسكها وهذا ما مكّنها من الابتسام بأدب في وجه ليو اليقظ وهي تعود إلى مكانها على الأريكة.

قالت تتعمد إجراء حديث: «هل أعرف أياً من ضيوف حفلة الغد؟».

وضعت روزا قائمة بأسماء من يُحتمل أن تقابلهم، مع شرح عن

خلفياتهم وعلاقاتهم بالأسرة، وإذا كان لدى ليو معلومات أخرى تساعدها، فستضمها طبعاً إلى القائمة.

ـ الأسرة، بشكل رئيسي، وبعض أصدقاء نونّا. لماذا؟ هل سيضجرك ذلك؟

هزت هاربيت رأسها، وصممت على إبقاء الأمور مفرحة حتى لو كلفها ذلك جهداً مضنياً: «لا! ولكن مضت سنوات على غيابي وهذا ما جعلني أخاف ألا أتذكر كل شخص».

قال مبتسماً ابتسامة هزت كيانها: «في تلك الحالة، يا ابنة عمتي الصغيرة، سأبقى بقربك على الدوام لكي أهمس لك بالأسماء».

ـ «هذا حسن جداً! ما أجمل أن تعودا صديقين!». . كان هذا صوت الجدة آتياً من ناحية الباب.

قال ليو: «لك، يا نونّا، كل ما يجعلك سعيدة! والآن، عليّ أن أغادر. لديّ عمل كثير أقوم به قبل أن آوي إلى سريري الموحش!».

تقدمت منه الجدة وقبّلت وجنته قائلة: «حاول أن تذهب إلى سريرك باكراً الليلة، يا حبيبي».

ضمّها بحنان وهو يربّت على يدها: «لا تخافي، يا نونّا! سأجعل دانتي وميريلا وفرانكو يأتون باكراً غداً».

تنهدت الجدة: «من المؤسف أن والديك في أمريكا. لكنني منعتهما من أن يقطعا عطلتهما لأجلي. على أي حال فإن وجود روزا بيننا يعوّض عن غيابهما».

أضافت جملتها الأخيرة وعيناها السوداوان الرائعتان تتألقان بابتسامة مفاجئة.

قال ليو بلطف: «وهذا ما أبهجنا جميعاً! تصبحين على خير يا ابنة العمة! إلى اللقاء غداً».

قال ذلك وهو يتقدم ليقف بجانبها، فتراجعت قليلاً خشية أن يقبلها. لكنه اكتفى بأن رفع يدها إلى شفتيه، ونظر إلى عينيها ليرى ردة الفعل لديها.

www.ewity.com

جذبت يدها من يده وهي ترد عليه تحيته بصوت أبح، وقد احمر وجهها. انحنى باحترام وفي عينيه نظرة انتصار، ثم تحوّل إلى جدته يعانقها، ومن ثم تركهما وخرج.

استدارت الجدة إلى هاريت متأوهة بسعادة: «والآن، يا عزيزتي، ماذا تحبين أن تشربي قبل النوم؟».

***

لم تستطع هاريت النوم جيداً تلك الليلة. لم يكن لأرقها علاقة بالخوف من اكتشاف أمرها، أو بتغيّر مكان نومها، ولا حتى بتعقيدات الحفلة. المشكلة هي ليو فورتيناري! كانت، لسبب ما، تظن أنها ستشعر نحوه بالعداء كما هو الأمر بالنسبة إلى روزا، ولم يخطر ببالها أنها ستشعر نحوه بكل هذا الانجذاب. على الشرفة في ضوء القمر، كان عليها استعمال كل ما لديها من إرادة في مقاومة إغراءاته... ارتجفت هاريت وتوهج وجهها لذكرى كل ذلك. ماذا لو عانقها؟... وأخذت تتقلب في الفراش وتدس رأسها في الوسادة.

ماذا يريد ليو؟ أخذت تفكر في ذلك بشكل عنيف. لقد كان، حسب قول روزا، العامل الرئيسي في إقصائها عن «فورتينو» طوال تلك السنوات. وفي ما عدا ذلك المشهد الصغير في الشرفة، لم يبد أن موقفه تغير كثيراً. وهذا ما جعل غزله لها أكثر غرابة. شدّت هاريت على أسنانها، فلم يعد قلقها الرئيسي الآن متعلقاً بضيوف الحفلة، وإنما هو وعد ليو لها، أو بالأحرى تهديده، بأن يبقى بجانبها طوال مدة الحفلة لكي يذكرها بالأسماء التي نسيتها.

حلّ يوم عيد ميلاد الجدة فيكتوريا فورتيناري صاحياً مشرقاً، ولكنه كان بارداً بالنسبة لارتفاع الفيلا عن سطح البحر وهذا ما جعل هاريت ترتدي كنزة روزا فوق البنطلون الجينز لكي تتناول طعام الفطور. تسللت إلى الطابق السفلي، حاملة كيساً كبيراً ملوناً خلف ظهرها. فالتقت في الردهة بسلفيا التي كانت تحمل صينية واسعة إلى الصالون. قالت المرأة القصيرة الممتلئة وهي تضع الصينية على منضدة: «صباح الخير! ستكون السنيورا معك بعد لحظة.

طلبت مني إحضار الفطور إلى هنا هذا اليوم فقط لأن غرفة الطعام جُهزت للحفلة».

سألتها هاريت وهي تخفي الكيس خلف كرسي: «هل بإمكاني المساعدة في شيء؟».

بدا الشك على وجه سلفيا: «لكن السنيورا...».

قاطعتها هاريت بحزم: «لكنني أحب أن أساعد».

سألتها الجدة وهي تدخل الغرفة مسرعة: «بأي شكل، بالضبط؟ صباح الخير يا عزيزتي. أحضري القهوة الآن يا سلفيا، من فضلك!».

ـ صباح الخير وعيد ميلاد سعيد جداً جداً.

قالت هاريت ذلك وهي تقبل وجنة جدة روزا بعطف زائد وصادق... لو حاولت إطلاق العنان لعواطفها مع جدتها هي بهذا الشكل لدفعتها عنها بضيق.

قالت الجدة باسمة وقد بدت عليها السعادة: «شكراً، يا روزا!».

نبذت هاريت كل شكوكها ومخاوفها، ثم كرّست نفسها لجعل هذا النهار سعيداً، بالنسبة لجدة روزا.

جلستا على الأرض والأطباق على الركبتين كما في النزهات البرية، فبدت الراحة على المرأة العجوز لهذا التغيير. أخذتا تأكلان الشمام والخبز الطازج من فرن القرية مع القهوة التي أحضرتها سلفيا. تطوعت هاريت، أثناء تناول الطعام، لإظهار مهارتها في تنظيم المائدة، فأخذت تطوي الفوط بشكل أزهار! وهي مهارة ظنت الجدة أن روزا اكتسبتها أثناء تدريبها في فندق الهرميتاج، بينما الحقيقة أن هاريت تعلمتها في مؤسسة للأغذية أثناء عطلاتها الجامعية.

ـ أريد المساعدة حقاً!

قالت هاريت ذلك تبرعاً منها، أولاً، وراجية في الوقت عينه أن يضيف هذا العرض نقاطاً لمصلحة روزا.

قالت السنيورا بمحبة: «أنت ماهرة فعلاً! يمكنني إعداد المائدة بشكل

جيد، أما تحويل الفوط إلى أزهار، فهذا للأسف يتعدّى إمكانياتي؛ وطبعاً إمكانيّات سلفيا والفتيات المساعدات اللاتي أحضرناهن من القرية».

عندما أخذت سلفيا الأطباق الفارغة، مدت هاريت يدها إلى خلف الكرسي تجذب الكيس القرمزي الكبير وتقدمه إلى الجدة قائلة: «عيد ميلاد سعيد مجدداً يا نونا!».

تلقت الجدة الكيس بلهفة الفتيات الصغيرات، وهتفت لعدد اللفافات في الداخل، وشعرت بالفرح لأن هذا يعني أن روزا أمضت وقتاً واهتماماً لا نهاية لهما في التفكير بهدية ترضي جدتها. أخذت هاريت تنظر، متوترة الأعصاب، بالنيابة عن روزا، إلى الجدة وهي تفتح العلبة ثم تحدّق في محتوياتها بعينين مغرورقتين بالدموع. أخرجت الصورة بيدين مرتجفتين، ثم أخذت تمر بإصبعها على الإطار الفضي وهي تحدّق في وجهي ابنتها وصهرها في هذه الصورة التي التقطت لهما قبل حادث الطائرة بشهر واحد فقط.

كانت روزا قد التقطت هذه الصورة بنفسها في الذكرى السنوية لزواج والديها. كانا سعيدين على شاطىء البحر، يضحكان للكاميرا، وقد لفّ كل منهما ذراعه خلف الآخر.

تملك هاريت، للحظة، شعور مؤلم بالتطفل ولكنها ما لبثت أن أرغمت نفسها على العودة إلى تمثيل الدور الذي تقوم به. فتنحنحت: «قدّرت أنك ستحبين تذكرهما على هذا الشكل، وأرجو ألا تكون الصورة أحزنتك».

وضعت جدة روزا الصورة برفق بالغ، ثم عانقت هاريت وأخذت تقبلها بحنان: «يا لهذه الفكرة الرائعة! شكراً يا حبيبتي!».

ـ افتحي البقية إذن. واحدة أخرى مني، ثم واحدة من كل من توني وأليغرا.

كانت هدية روزا الثانية عبارة عن كنزة من الكشمير، وسترة صوفية طويلة وردية اللون، فاندفعت السنيورا على الفور تجرب السترة، ثم أعلنت أنها مناسبة تماماً. أبقتها على جسمها ومضت تفتح هدية توني التي كانت عبارة عن طقم من إطارات فضية للصور، مطعمة بالذهب. هي خالية الآن،

جاهزة لتأطير صور المولود الذي سيأتي.

كانت هدية أليغرا عبارة عن مجموعة ثمينة للغاية من مستحضرات التجميل، وهذا ما أثار استغراب توني الذي اعتبرها هدية لا تليق بامرأة في الثلاثين، وعندما أخبرت هاريت الجدة بذلك، ضحكت هذه بغبطة: «لقد اختارت أليغرا هدية جيدة. أنا لا أرى العمر سبباً يمنعني من تجميل بشرتي!».

مرّ سائر النهار بسرعة. وكان قد سُمح لهاريت بدخول المطبخ الواسع حيث لقّنها بترحيب وحرارة مجموعة من النسوة الطليقات اللسان اللاتي يهتممن بالترتيبات النهائية. ساعدت هاريت في نشر الغطاء الدمشقي الزهارف على المائدة المستطيلة في غرفة الطعام، ثم أخذت تحوّل الفوط إلى أشكال الزنابق وبراعم الورد. عملها هذا حاز على إعجاب سلفيا، وجموعتها من النسوة اللواتي أخذن يكدّسن الأطباق والفضيات على ناحية من المائدة.

عندما أخذت باقات الأزهار تصل تباعاً لتهنئة السنيورا فورتيناري، حازت هاريت على إعجاب الجميع نظراً لذوقها الرفيع في تنسيق الأزهار، وأعلمت لتزين بها الصالون والردهة والمائدة بشكل خاص.

ـ لقد تغيرت كثيراً، يا روزا.

قالت السنيورا ذلك وهي تستقر في كرسيها مستندة إلى الخلف، مبتسمة لهاريت.

ـ لأنني كبرت.

قالت هاريت برصانة وكان هذا صحيحاً بالنسبة إليها وإلى روزا معاً. كانتا مراهقتين صعبتين للغاية، إنما بشكلين مختلفين. أما الآن، فقد أصبحتا امرأتين ناضجتين، على قدر من الرزانة والشعور بالمسؤولية اللذين لم تكن أيّ منهما تحلمان به ذات يوم. توقفت عن صبّ القهوة لدى سماعها صوت جرس الباب يقترب من القيلا.

ـ «دانتي!» قالت السنيورا ذلك بلهفة، فيما شعرت هاريت بخيبة أمل.

ارتسمت على وجه الجدة ابتسامة عريضة وهي ترى دراجة نارية قرمزية اللون تندفع على نحو خطر خلال الأعمدة الحجرية في الباحة، ثم تصعد إلى الحديقة هادرة لتقف عند أسفل الدرجات الحجرية بعرض مثير. نزل عنها شابٌ هو نسخة أخرى عن ليو، إنما أصغر حجماً وسناً وأروع جمالاً. صعد الدرج ببضع قفزات وتوقف أمام السنيورا باحترام شديد ليأخذها بعد ذلك بين ذراعيه ويقبلها بمرح.

ثم قال بصوت أكثر مرحاً ورخامة من صوت أخيه:

ـ عيد ميلاد سعيد، يا نونّا! ثم نظر إلى هاربيت بإعجاب ساخر:

ـ وهذه، طبعاً، روزا الشهيرة!

باتت هاربيت مقتنعة أن روزا كتمت عنها تفاصيل كثيرة تتعلق بحداثتها وطيش الشباب. أخذت تنظر إلى هذا الفتى الرشيق بملابسه الجلدية السوداء، ثم ابتسمت بمودة وهي تمدّ له يدها قائلة بدعابة: «وهذا هو دانتي الشهير!».

ضحك دانتي مسروراً وأمسك بيدها، ثم قال بلهجة مرحة وعينين راقصتين:

ـ كنتُ في العاشرة من عمري عندما رأيتك آخر مرة. كنت عبارة عن عينين وضفائر فقط!.. ومتورطة في المتاعب على الدوام!

قالت تطمئنه: «لقد انتهى ذلك كله!».

هذا إذا استطاعت تجنب ذلك على كل حال!

قال ببشاشة: «أخبرني ليو أن عليَّ الانتظار حتى المساء كي أراك. لكنني لم أستطع الانتظار لأرى ما إذا كنت قد تغيرت عما أعهد، يا روزا! وها أنت تغيّرت حقاً!».

قالت هاربيت بانزان وجد: «شكراً جزيلاً!».

فقالت الجدة بمحبة: «فتى وقح! أجلس واشرب القهوة!».

ـ بعد لحظة!

ثم قفل عائداً إلى دراجته النارية وأحضر طرداً من الصندوق وعاد به

جرياً. ركع على ركبة واحدة أمام جدته، وناولها الطرد بحركة مسرحية: «إلى غرام حياتي!».

ربتت الجدة على خده ضاحكة، ثم قبلته وأشارت عليه بالجلوس إلى جانب روزا وراحت تفتح هي الطرد. وسرعان ما هتفت الجدة بفرح عندما أخرجت وشاحاً من المخمل الأسود مبطناً بحرير أحمر. نهضت السنيورا على الفور لتأخذه إلى حجرتها قبل أن يحدث له ما يتلفه.

ـ والآن، يا روزا، هل أنت مسرورة بعودتك إلى الحظيرة؟

ليس في هذا السؤال سوء نية، ولم يكن في عينيه أي حقد، لذلك شعرت هاربيت بالارتياح: «حتى الآن أنا مسرورة للغاية!».

ـ أعذريني لغيابي عن العشاء الليلة الماضية. لقد أرسلني ليو في مهمة لكي يخلو له الجو!

قال ذلك ضاحكاً، ثم تابع: «وعندما رأيتك عرفت لماذا يريد الاستئثار بك!».

احمر وجه هاربيت: «لا أظن ذلك!».

هز دانتي رأسه: «إذا كنت تقصدين ذلك الحادث القديم، فانسيه! لقد نسيه الجميع».

ـ لكنك لم تكن هنا حينذاك!

أجاب آسفاً: «هذا صحيح، فقد كنت في زيارة أصدقاء لي في كاليفورنيا، ففاتني المشهد، غير أنني علمت بكل ما حدث لدى عودتي».

ـ أنا مسرورة لأن ذلك قدّم للجميع مادة للتسلية!

قالت هاربيت ذلك بعتاب صارم، فهز دانتي رأسه جاداً:

ـ لم يخبر ليو أحداً سواي، يا روزا. عدت بعد رحيلك مباشرة، فسألته بإلحاح عن سبب اسوداد عينه. ولكن الشخص الوحيد، الذي عرف ما حدث حقاً هو «فيدو براكو»-طبعاً، وهو لن يكون هنا الليلة لأنه يعيش الآن في نيويورك.

كان هذا شيئاً حمدت هاربيت الله لأجله من الأعماق فروزا لم تذكر لها

www.rewity.com

شيئاً عن «غيدو براكو» هذا ولا عن اسوداد عين ليو.

وعندما عادت جدته للجلوس معهما، أخذ دانتي يثرثر فترة، ثم خرج وهو يقول:

ـ عليك أن تستريحي، يا نونّا، لكي تكوني أكثر جمالاً هذه الليلة.

وقفت هارييت والجدة تلوّحان لدانتي الذي شغّل محرك الدراجة وانطلق بها بخيلاء تناسب سنّه.

قالت الجدة: «اتركي صينية القهوة يا روزا. يجب أن أذهب لأستريح. لكنني أريد قبل ذلك رؤية الملابس التي أحضرتها معك».

قالت هارييت مازحة وهما تدخلان الغرفة: «أرجو أن تكون غرفتي من النظام بحيث تعجبك!».

فقالت السنيورا وهي تنظر حولها: «إنها مثالية، يا عزيزتي».

ثم تنهدت، وقد ظهرت تجاعيد مفاجئة على وجهها:

ـ عندما كنت صغيرة، كان عليّ أن ألقي عليك محاضرات في تنظيف غرفتك، لكنني لن أكون مضطرة إلى مثل ذلك بعد الآن.

سارعت هارييت إلى تغيير الموضوع:

ـ أي ثوب يعجبك يا نونّا؟

أشرق وجه السنيورا عندما أخذت هارييت تعرض الثياب على التوالي. كان الأول طويلاً ضيقاً، وهو برونزي اللون، ذو فتحة عنق واسعة. قماشه من الشيفون المزدوج، تحمله عدة شرائط من الساتان عند الكتف. أما الثاني فكان قصيراً دون حزام قماشه من الكريب المطاط وهو أسود اللون، مطرز بأزهار حريرية متفرقة.

تأملت الجدة الثوبين، ثم قالت: «الثوبان جميلان جداً يا عزيزتي! لا أستطيع المفاضلة بينهما!».

ـ هل ستلبسين ثوباً طويلاً، يا نونّا؟

ـ نعم! من المخمل الأسود، كما يعلم دانتي على ما يبدو! يا للفتى النبيه!

ـ سألبس أنا ثوباً طويلاً إذن!

قالت هارييت ذلك، مفضلة الثوب البرونزي اللون لأنه أكثر احتشاماً من الأسود.

بعد عودة الجدة إلى غرفتها لتستريح، أخذت هارييت كتاباً وذهبت إلى غرفة حيث تمددت على أريكة من الخيزران ووضعت وسادة تحت رأسها ثم أخذت تقرأ، مصممة على الا تقلق بعد الآن على ما قد يحدث في الحفلة. حتى الآن لم يكشف أحد في الأسرة الغطاء عن زيفها.. لذا من غير المحتمل أن يكتشفه أحد آخر من ذلك. شعرت هارييت بشيء من الرضا، ثم أخذت في قراءة الرواية المعقدة التي بين يديها، وسرعان ما استغرقت فيها إلى درجة أنها لم تنتبه إلى صوت يناديها باسم روزا.

انتبهت إلى ظل وقع على الصفحة، فلما رفعت بصرها رأت ليو بورباري يحدق فيها، وقد لاحت ابتسامة على فمه: «لا بد أنه كتاب ممتع للغاية، لأنني ناديتك مرتين!».

باسم روزا طبعاً، عليها أن تكون أكثر حذراً.

أرته هارييت صورة المؤلفة على الغلاف الأخير، قائلة: «إنها مؤلفة القصص البوليسية المفضلة عندي. لقد شدّت الرواية كل انتباهي وصرفتني عما حولي. نونّا في غرفتها. هل تريدها؟».

أجاب وهو يمد يديه إلى ساقيها ينزلهما إلى الأرض ويجلس بجانبها: «ليس الآن! أريدك أنت!».

انتفضت هارييت جالسة وراحت تسوّي الوسادات: «ماذا يمكنني عمله لأجلك؟».

أجاب بلهجة احمر لها وجهها: «إذا أخبرتك بما أريد، فسيزداد احمرار وجهك!».

قالت بارتياب: «لا يمكنني الثقة بك وبمزاجك على هذا النحو، يا ليو. فأنا أعلم أية مودة حين مجيئي! ما الذي غيرك؟».

أمسك بيدها وأخذ يمر عليها بإصبعه: «ظننتك ما زلت على ما عهدتك عليه.. ولكن عندما لاحظتك مع نونّا ورأيت كيف تعامليها بكل حب

وحرارة نظرت إليك بعينين جديدتين. رأيت روزا المرأة بدلاً من الطفلة المغرية التي تخطىء فهم الرجال بشكل سيء».

يا للسماء! ما الذي هدفت روزا إليه بالضبط حينذاك؟

قالت باختصار وهي تسحب يدها: «كان ذلك منذ وقت طويل. الناس يتغيرون. كان دانتي هنا قبل قليل».

أجاب وهو ينظر في عينيها: «أعلم هذا، فقد أخبرني. أمنعك من تشجيع دانتي. فإن أردت أن تجربي أحابيلك على أحد، فليكن ذلك معي.. فقد ألفتها، لا تنسي!».

ظنت هاربيت لحظة أن لغتها الإيطالية خذلتها، فسألته: «هل سمعتك حقاً تقول (تمنعني)؟».

ـ نعم يا روزا. لقد سمعتني جيداً!

التهبت عيناها غضباً: «لقد جئت إلى هنا لأجل نونا، وليس لأراك أو لأغري دانتي، أو أي شخص آخر! إن لي حياتي الخاصة، يا ليو!.. رغم أنك حاولت إفسادها بتقليب نونا ضدي طوال هذه السنوات. لقد أخبرتني هي بذلك كله الليلة الماضية».

ـ اردت أن أبعد عنها المزيد من الألم.

قالت باستخفاف: «أشك في أن هذا هو السبب الوحيد. قل الحقيقة، يا ليو! كنت تريد مني أن أتألم لخطاياي».

ـ كان لدي أسبابي الخاصة وأنت تعرفينها.

ويا ليتها تعرفها حقاً! فكرت هاربيت في ذلك وهي تجفل من رغبة مفاجئة في معانقته، وهذا ما جعلها تقفز واقفة.

قفز ليو هو أيضاً، سادّاً عليها طريق الدخول إلى المنزل.

ـ روزا...

قالت لاهثة: «أرجوك. إنه عيد ميلاد نونا، ولا أريد أن أتشاجر معك يا ليو!».

قال باسماً: «لا رغبة لي بالشجار، يا روزا... أريد فقط مغازلتك!».

حملقت هاربيت به، فسمّرتها عيناه لحظة، لكنها أشاحت بوجهها عنه، وذكرت نفسها بأنه لم يقبل بأن يبادل روزا عواطفها الفتية المحمومة في الماضي، لما هذا التغيّر المفاجىء نحوها الآن؟ لكنها ليست روزا! إنها امرأة لا يعلم ليو بأنه لم يعرفها إلا منذ أربع وعشرين ساعة! قالت متجاهلة تسارع نبضها: «قلت لك، يا ليو، إنني تغيرت. لقد أقلعت عن التصرفات الطائشة ولا أنوي تكرار ذلك».

قال وهو يزيد اقترابه منها: «حتى ولو أوضحت لك أنني أرحب الآن بتصرفاتك تلك؟».

استدارت هاربيت تواجهه: «لماذا تفعل هذا، يا ليو؟ هل هو انتقام مني لأنني كنت مزعجة في ذلك الحين؟».

أطلق ليو ضحكة قصيرة: «لا يا روزا! ليس لأنك كنت مزعجة».

وأمسك بمرفقها فشعرت بلمسته تحرقها من خلال صوف الكنزة الرقيق.

ـ ربما أنا غيور! وهو شعور غير مألوف لدي!

أخذت هاربيت تحدق فيه وتعمل ذهنها بعنف. أتراه علم بأمر باسكال تالبرنير؟.

وهز ليو كتفيه: «كل النساء يحببن دانتي!».

قالت وهي تبتعد: «أعرف السبب. لأنه وسيم جداً».

ـ أعلم هذا! كما أنه ظريف حسن الطبع. وكل هذه ميزات لا أملكها. لا يهمني أن أمتلكها، وأنت تفهمين. كل ما يهمني هو أن أخي وجد ابنة عمتنا الصغيرة لذيذة للغاية.

قالت ساخرة: «هل هذا هو السبب في إرسالك إياه إلى «أريزو» هذا النهار، لتنقذه من روزا الخطرة؟».

ـ كلفته بإحضار الهدية التي طلبت من المتجر إرسالها. أخبرته بأنني لا أستطيع ذلك لانشغالي.

نظرت هاربيت إليه صامتة للحظة، ثم قالت: «كنت مخطئاً بالنسبة لأمر

www.rewity.com

واحد، يا ليو!».

- وما هو؟

قالت ملقية بالحذر عرض الحائط: «حقاً إن دانتي أكثر ظرفاً وأقل استبداداً. لكنك مخطىء بالنسبة إلى الشكل».

أطلق هتافاً مختنقاً مفاجئاً لم تستطع هاريت فهمه بلغتها الإيطالية. أخذها ليو بين ذراعيه وعانقها بشدة، فتجاوبت معه بشكل غير إرادي. كان يضمها أكثر فأكثر مانعاً إياها من الحراك ولكنها ما لبثت أن أجفلت وابتعدت عنه متعثرة في سيرها، متوهجة الوجه.

نهض ليو واقفاً ببطء وهو يلهث: «أتريدين مني أن أعتذر؟».

هزت رأسها إيجاباً، وحاولت إخفاء حمرة الخجل التي بلغت منابت شعرها:

- كان يمكنني أن أرفض.

- لكنك لم تفعلي! هل يعني هذا أن انجذابك الماضي إليّ لا يزال موجوداً.

أجابت محاولة أن تبقي روزا بعيدة عن الإزعاج: «لا!».

فابتسم غير مصدق: «لا؟! سنرى!».

قال ذلك بلهجة تنذر بالخطر، ثم استدار باسماً عندما خرجت جدته لتجلس معهما:

- جئت لأهنئك بعيد ميلادك يا نونّا.

عانقته السنيورا بحرارة وهي تقول: «لقد سمعت صوتك، يا ليو، لماذا أزعجت نفسك بالقدوم الآن مع أنك ستكون حاضراً هذه الليلة؟».

قال وهو ينظر إلى هاريت بعينين لامعتين:

- لم أشأ أن أدع دانتي يتفوق عليّ بمحبته لك.

قالت الجدة وهي تربّت على وجنته: «إنكما، أنتما الاثنان، رقيقان ومُحبّان».

ثم التفتت إلى هاريت: «هل استرحت بعد الظهر، يا حبيبتي؟».

- قرأت بعض الوقت.. ثم جاء ليو.

وليو فورتيناري قد يبعث في نفسها أي شيء إلا الراحة...

قالت الجدة بحزم: «والآن، سنتناول الشاي الإنكليزي. هل تبقى معنا، يا ليو؟».

- يسرّني هذا، يا نونّا، لولا أنني مشغول جداً. سأراكما في ما بعد.

وقبّل ليو جدته على وجنتيها: «هل أطلب لكما الشاي في طريقي؟».

- لا، يا عزيزي. أفضّل أن أتحدث إلى سلفيا بنفسي حالياً. وأتأكد من أن كل شيء، بالنسبة للحفلة، على ما يرام.

وابتسمت لهما الجدة، ثم غادرت الشرفة.

عانق ليو هاريت بسرعة، قائلاً أثناء ذلك:

- إلى اللقاء هذه الليلة إذن يا روزا. لا تشجعي دانتي!

استدار هابطاً الدرجات متجهاً إلى سيارته. وعندما فتح بابها رفع بصره إليها وهو يتابع محذراً: «ولا أي شخص آخر!».

وكان في هذا ما نبّه هاريت إلى أن عليها بذل كل ما في وسعها لتجنّب روزا موستين مشاكل لم تكن في حُسْبانها.

***

www.liilas.com منتديات روايتي

٤ ـ حقد من الماضي

حدّقت هاربيت جيداً إلى المرآة. وشعرت كأنها ممثلة على وشك أن تؤدي، هذه الليلة، أصعب دور في حياتها. وهذه الليلة، بملابسها الثمينة المستعارة، كادت تصدّق أنها روزا حقاً! كان الثوب طويلاً ضيقاً فتحته واسعة.. وكانت زينة هاربيت الوحيدة مجموعة من الشرائط الحريرية على الكتفين، خاتماً مستعاراً وقرطين من اللؤلؤ هما هدية لوالدة روزا من أمها السنيورا فورتيناري.

ابتسمت هاربيت بجفاء ساخر لصورتها في المرآة، وخاطبتها: «هيا يا ساندريلا ـ روزا! حان وقت الحفلة!».

لم تكن حفلة عادية، وإنما اختبار مخيف لذاكرة هاربيت وقدرتها على التمثيل. كان ليو فورتيناري المشكلة الكبرى التي لم تتوقعها. لقد نصحتها روزا، بكل قوة، بالابتعاد عن ابن خالتها، لكنها لم تتصور أن هاربيت ستجد في ليو عاشقاً خطراً. لمسة واحدة من يده كانت كفيلة بإثارة مشاعرها الأكثر عمقاً. كان حبيب هاربيت السابق «غاي وارن» دائم الشكوى من أن جمالها المثير يتعارض مع تصرفاتها الباردة المنضبطة معه. كما كان آخرون قبله يشكون منها. ولكن ها هي الآن تثبت خطأهم، وذلك لأول مرة في حياتها، مع الرجل غير المناسب وفي الوقت غير المناسب. أو لعل ليو هو الذي أثبت ذلك؟! هذا يعني أنه ما كان عليها أن تنسى خطر ليو فورتيناري، ليس فقط لتأثيره القوي فيها، وإنما لعلمه بأخطاء روزا السابقة. تملكها الخوف، وأصبح واضحاً الآن أن روزا قد أغفلت ذكر تفصيلات معيّنة يعرفها ليو

جيداً.

هبطت هاربيت السلم ببطء، فشعرت وكأنها تسير على حبل مشدود في حفل ألغام، وخاصة وهي ترى ليو ينظر إليها من أسفل.

ابتسم ابتسامة بعثت الرجفة في أعماقها وقال بصوت أبح: «مساء الخير، يا روزا! إنك رائعة الليلة!».

قالت هاربيت في نفسها: «هو أيضاً كذلك، ببذلة السهرة السوداء الرائعة التفصيل، وقميصه الناصع البياض، ولونه الأسمر. إنه مثال الرجل الذي تحلم به».

أجابت بهدوء، محاولة السيطرة على خفقات قلبها: «إنك مبكر، يا ليو!».

قال وهو يمسك بيدها ليقودها إلى الشرفة: «أردت أن أتبادل معك بضع كلمات على انفراد قبل حضور الآخرين. ونوناً لن تنزل الآن».

ـ وما أدراك؟

ـ سألت سلفيا. روزا، ليس هذا قصدي.

قال ذلك وهو يحدق إلى المنظر أمام الشرفة.

ـ أتعني أنك كنت تريد القدوم في ما بعد؟

التفت ينظر إلى وجهها المرفوع إلى إعلى:

ـ عنيت، يا روزا، أنني عندما علمت بأنك ستعودين لم يكن في نيتي أن أدعك تحاولين إغرائي مرة أخرى. فأنت ما عدت صغيرة. لقد أصبحنا، نحن الاثنان، شخصين مختلفين عن ليو وروزا القديمين.

وأكثر مما يعلم.. فكرت هاربيت بذلك بأسى، متسائلة إلى أين سيقودها هذا؟ قالت:

ـ ظننتُ أني سأجدك متزوجاً!

ـ وكان هذا سيحصل. لكن «لويزا براكو» فسخت الخطبة بعد أن ضربت أعماها بذلك الشكل... ولكنك تعرفين كل هذا، يا روزا!

وتابع بنفاد صبر قائلاً: «روزا.. روزا... ما الذي كنت تهدفين

www.rewity.com

إليه؟».

أخذت هاريت تفكر بقلق: «غيدو براكو هذا الذي هو في أميركا الآن، هو على ما يبدو من اختارته روزا لإثارة غيرة ليو منذ سنوات! لكن روزا لم تأت على ذكره قط ولا على ذكر أخته!».

أخذت تنظر إلى جانب وجهه، متسائلة عما إذا كان لا يزال حزيناً متشوقاً إلى لويزا تلك.

- آسفة! هل أحببتها كثيراً؟

أجاب بابتسامة صغيرة: «أسرتها تملك كروماً مجاورة لكرومنا. وكان ذلك سيكون زواجاً مناسباً».

حملقت فيه: «هل هذا كل ما تتوقعه من الزواج؟.. أن يكون مناسباً؟».

هز ليو كتفيه: «كانت لويزا... امرأة رائعة الجمال، لذا ليس صعباً أن يقوم المرء بدور الزوج ولا تنسي أننا كنا نعرف بعضنا البعض طوال حياتنا».

- وأين هي الآن؟

ألقت عليه هذا السؤال داعية الله أن تكون لويزا في نيويورك الآن مع أخيها.

اشتدت قبضة ليو وهو يبتسم لها:

- في هذه اللحظة بالذات، أتصورها في السيارة مع أختها صوفيا، في طريقهما إلى هنا للاحتفال بعيد ميلاد نونا.

نظرت إليه هاريت بذعر: «لا! أرجوك! قل إنك تمزح!».

ضحك ليو، قائلاً: «لا تخافي يا روزا! سأحميك».

- أشكرك كثيراً. هل هي متزوجة الآن؟

- كانت متزوجة، وهي أرملة الآن. لا بد أنك سمعت بذلك.

فقالت بحزن: «يبدو أنني نسيت».

هذا ما كانت روزا توصيها به طوال الوقت: أن تقول إنها نسيت. لن يتوقع أحد أن تتذكر روزا موستين كل شيء.

- بعد عودتي إلى البيت طلب مني أبي أن أنسى أنني كنت في «توسكاني»

تلك السنة، ولم تكن أمي تتجرأ على إبلاغي أي شيء عن أخبار الأسرة.

قالت هاريت هذا لتُريه مبلغ مرارة روزا بالنسبة لهذا الموضوع.

- وهكذا أرسلك أبوك للعمل في مطبخ فندق هرميتاج! إنه أسلوب في القصاص يعود إلى القرون الوسطى، روزا! هل اعترضت؟

- نعم، طبعاً! فقط لأن القصاص حدث لأجل هذا الأمر بالذات! كانت روزا الصغيرة مخصصة دائماً للعمل في مصالح الأسرة. وقد ابتدأ توني بنفس الطريقة. لكنه ذهب أولاً إلى الجامعة. أما أنا فكان عليّ الذهاب إلى الجامعة في ما بعد!

وأشاحت بوجهها محاولة تخليص يدها من يده، لكن ليو شدد قبضته عليها، ولم تستطع رد نفسها عن القول:

- بالتأكيد كان هناك نساء أخريات في حياتك بعد لويزا.

- طبعاً يا روزا! فأنا لست راهباً. لكنني لم أجد من أرغب في زواجها. هذا غير مهم على أي حال. دانتي سينجب وريثاً لأملاك فورتيناري يوماً ما.

- لا بد أنك أنت أيضاً تريد أولاداً.

- هذا إذا وجدت امرأة مناسبة لتكون أماً لهم.

قال ذلك ساخراً وهو يجذب يدها ويسألها: «هل تريدين أولاداً، روزا؟».

- نعم!

قالت هاريت هذا بالنيابة عن روزا، ولكنها أدركت فجأة أنها كانت تتحدث أيضاً عن نفسها. حتى الآن، الأولاد الذين كانت تفكر فيهم هم فقط أولئك الذين تعلمهم. إنما الآن... ورفعت نظرها إلى عيني ليو الحادتين، اللتين جذبتاها بحيث لم تنتبه إلى حركة وضجيج أشخاص قادمين من مكان ما في المنزل.

- حان وقت دخولنا.

قالت ذلك فجأة، قبل أن تتورط في حماقة تشوّه صورة روزا إلى الأبد.

قال وهو يلامس شعرها: «كما تشائين. لا تخافي يا روزا! فلن أفسد هذا

الجمال الرائع بنزوة من نزواتي. ليس الآن على الأقل. وليس هنا».

جذبت هاريت نفساً عميقاً: «لن أكون موضوعاً لنزواتك يا ليو، أبداً، ولا في أي مكان. لم أعد تلك الفتاة التي تعرفها. صدقني!».

ـ أصدقك لأنك مختلفة الآن كلياً... فلم تعودي تلك الصغيرة العنيدة، وإنما امرأة ناضجة رائعة الجمال. امرأة أتلهف إلى احتضانها.

يوم الإثنين... أغمضت هاريت عينيها وهي تفكر بأسى وتصمم كل ما عليّ الآن هو اجتياز هذه الليلة بسلام، وكذلك نهار غد، ثم أرحل يوم الاثنين إلى بلدي. أعود إلى «بينينغتون» حيث بيتي وحياتي.

ترك ليو يدها كارهاً لأنه سمع صوت محرك سيارة صاعدة إلى القبلا قال:

ـ سنتحدث في ما بعد. والآن دعينا نذهب إلى نونا لنخبرها بوصول جميع الضيوف، تقريباً.

لم يكد الوقت يكفي لتبادل عبارات الإعجاب فسرعان ما جاءت السنيورا فورتيناري ترفل في ثوب من المخمل الأسود، وعلى كتفيها وشاح دانتي الرائع. هتفت وهي ترى هاريت: «تبدين رائعة حقاً، يا صغيرتي! أليس كذلك يا ليو؟».

فأومأ هذا برصانة: «هذا هو وصفها بالضبط!».

وانحنى يقبل يد جدته، قائلاً: «أما أنت، يا نونا، فتبدين متفوقة! هل لك أن تتحلي بهذه الهدية، مع حبي؟».

وفتح علبة احتوت على سلسلة ذهبية تدلت منها ماسة صغيرة.

هتفت الجدة بنشوة لمنظرها، وقبّلت ليو بحب، ثم أحنت رأسها ليتمكن من وضع السلسلة حول عنقها.

ـ إنه الجمال بعينه!

قالت هاريت ذلك، فمنحتهما السنيورا ابتسامة مشرقة.

ـ إنه الجمال بعينه، كما قلت يا روزا. إنني امرأة محظوظة هذه الليلة. هيا! سنقف معاً، نحن الثلاثة، لاستقبال الضيوف. ولا تنس، يا ليو، أن

لا تُر روزا بأي اسم قد تكون نسيته.

أجاب وهو ينظر إلى هاريت باسماً: «إنه السبب الآخر الذي جعلني أحضر مبكراً».

كان هذا ترتيباً سهّل الأمور عليها بشكل مدهش. إذ كان ليو يهمس في أذنها باسم كل شخص يقترب، وكانت السنيورا تقوم بالتعريف بالأصدقاء الذين لم ترهم روزا من قبل.

مرّ الجزء الأول من الحفلة بسهولة أكثر مما كانت تحلم به هاريت. كان داني أول القادمين، يتبعه شاب أشقر بصحبة فتاة جميلة عرفت هاريت أنها ميريلا، إذ استقبلت بكثير من الترحيب والعناق، ثم تعرفت إلى زوج ميريلا، «فرانكو باغليا». بعد ذلك أخذ الضيوف يتوافدون بسرعة. وفجأة أصبحت الحفلة تموج بالمدعوين. قبلت هاريت كأس شراب، وكانت تهنىء نفسها على اجتيازها المحنة بسهولة، عندما همس ليو في أذنها:

ـ وصل بقية المدعوين: صوفيا براكو وزوجها ماركو روسي. لكن لويزا لم تحضر.

حمدت هاريت الله، وشكرت الله على وجود ليو بجانبها خاصة عندما دخلت امرأة شقراء، جميلة ولكن جامدة كالتمثال، يتبعها رجل أشيب الشعر. كان شعر صوفيا روسي بديعاً بلونه الذهبي الغريب، وكان جسدها المثير ملتفاً بثوب من الشيفون الأسود يبدو أنها اختارته ليكون أرضيةً سوداء تعرض عليها مجوهراتها الماسية.

رحبت بهما السنيورا فورتيناري، وتبادلت القبلات مع صوفيا التي اعتذرت عن عدم حضور شقيقتها لوعكة صحية. ثم التفتت إلى ليو بابتسامة تخطف البصر وعانقته بحرارة. لكنه تخلص منها، مقدماً هاريت إلى الأمام.

ـ إنك تتذكرين صوفيا، طبعاً، يا روزا! لكن دعيني أقدمك إلى زوجها، ماركو روسي.

ماركو روسي يكبر زوجته بعشرين عاماً على الأقل، وهو رجل أعجبت هاريت به من أول نظرة، فقد غمز بعينيه الزرقاوين الذكيتين وهو ينحني

ليقبل يدها وقال إن تعرفه إليها هو سرور طال انتظاره له.

قالت صوفيا ببرودة وهي تشمل هاربيت بنظراتها من فوق لتحت: «لقد تغيرت كثيراً، يا روزا!».

أجابت هاربيت: «وأنت أيضاً، يا صوفيا، لم أكد أعرفك!».

ذهلت وهي ترى غضباً بالغاً في عيني المرأة. في هذه اللحظة تدخل دانتي بسرعة قائلاً إنه سيأخذ روزا لتلعب مع أناس من جيلها. وهي دعابة لم تنل استحسان صوفيا روسي على الإطلاق، ولا استحسان ليو أيضاً، ولكن دانتي كان يجرها بيدها مبتعداً وهي تنظر خلفها.

- سآتي لإنقاذك حالاً، يا روزا!

قال ليو ذلك، متجاهلاً حملقة صوفيا الغاضبة فيه، ونظرة ماركو روسي الجافة الساخرة.

كان دانتي يتهالك ضاحكاً وهو يأخذ هاربيت لتجلس مع ميريلا وزوجها في الصالون، وقال لهما: «لقد كسبت روزا لنوّها عدوّة جديدة!».

قالت هاربيت: «إذا كنت تعني صوفيا براكو، أخشى أنني قمت بذلك منذ سنوات».

قالت ميريلا وهي تفسح لهاربيت مكاناً بجانبها على الأريكة: «لا تهتمي لصوفيا يا روزا!».

سأل فرانكو، الذي كان شاباً ودوداً للغاية، وشديد القلق على زوجته: «ماذا حدث؟ هل تريدين وسادة، يا حبيبتي؟».

أجابت ميريلا ضاحكة: «لا! كما ترين روزا، الوحيدة التي يتوجَّب عليها الجلوس. وجلوسك معي هو لطف بالغ منك».

- يسرني ذلك، خصوصاً مع هذا الحذاء العالي الكعب.

وابتسمت لفرانكو، وقالت بشيء من الخشونة:

- ظننت أن الجميع يعلمون بأنني، عندما كنت صغيرة جداً، وحمقاء جداً، حاولت أن أثير غيرة ليو من شقيق صوفيا غيدو.

قال دانتي لاوياً شفتيه وهو يجلس على ظهر الأريكة:

- اختيار سيء! لقد تجاوب غيدو بحماسة بالغة لذا عندما وجد ليو روزا ... كادت الصغيرة تموت خوفاً فقد شرع ليو يضرب غيدو لتجرُّئه على «ابنة عمة ليو فورتيناري»! وقد بلغ الغضب بلويزا براكو، للعقاب الذي أوقعه ليو بأعبها العاشق الأحمق، أن أعادت إليه خاتم الخطوبة. وكانت هذه غلطة كبرى لأن ليو، وهو كما تعرفونه، شكرها بأدب واسترجع الخاتم.

كبحت هاربيت انفعالاً تملَّكها، فلا عجب أن تحمل روزا كثيراً من التفاصيل. وقالت: «ما زالت صوفيا على يبدو تضمر لي العداء. لقد رمقتني بنظرة قاتلة عندما وصل دانتي لينقذ الموقف».

فقال دانتي ضاحكاً: «لقد غضبت لأنك قلت بأنك لم تعرفيها تقريباً. آخر مرة رأيت فيها صوفيا كانت أنحف بعدة كيلوغرامات، كما أن شعرها كان أسود».

ضحكت ميريلا، قائلة: «زواجها بماركو روسي هو شيء جيد. إنه من الغنى بحيث يمنحها ما تشاء من المال لتنفقه على شعرها وملابسها».

- وعلى المجوهرات، إذا نظرنا إلى ما تتحلى به.

قال فرانكو ذلك وهو ينحني على زوجته يساعدها على الوقوف: «حان وقت العشاء».

وقف دانتي ببذلته المخملية السوداء وقميصه الحريري الأسود، وقدم ذراعه لهاربيت قائلاً:

- هيا بنا إذن، يا ابنة عمتي الصغيرة. فلنأكل قبل أن تنفث صوفيا سحرها فتحيل الطعام إلى رماد.

سأله هاربيت بفضول وهما يتبعان الآخرين إلى غرفة الطعام: «ألا تحبها؟».

- بصراحة لا! كما إنني لم أحب لويزا. كان ليو غاضباً جداً منك عندئذ. كان عليه برأيي أن يشكرك لإنقاذه من ذلك المصير الرهيب. وأظن أنه أصبح يوافقني الرأي منذ عودتك إلينا.

قال ذلك ضاحكاً وهو ينظر إلى ليو قادماً نحوهما. سأله أخوه: «عمَّ

تتحدثان، يا دانتي؟».

- كنا نخبر فرانكو عما حدث عندما كانت روزا هنا في الماضي.

رمقه ليو بنظرة تأنيب، وقال بحدة: «من الأفضل أن يبقى هذا منسياً. أنا وروزا فقط نعرف حقيقة ما حدث».

قال ذلك وهو ينظر إلى هارييت نظرة جمدت الدم في عروقها.

ارتجفت. من الواضح أن ثمة أكثر مما يعرفه دانتي. وهو ما يفسّر إحجام روزا عن الإفضاء بالحقيقة كاملة خشية أن ترفض هارييت القيام بالرحلة.

- لا تبدي بهذا الشكل المأساوي. انسي الماضي وركزي انتباهك على الحاضر. الليلة هي ليلة الاحتفال.

قال ليو ذلك بهدوء. فقال دانتي بارتياح: «هذا صحيح!».

وهكذا دخلت هارييت قاعة الطعام بصحبة الأخوين فورتيناري مع ميريلا وفرانكو. بعد ذلك أرسل ليو أخاه دانتي ليرى ما إذا كانت جدته بحاجة إلى شيء، ثم اقترح أن يتناولوا الطعام في الشرفة.

وعندما رأى هارييت تتجه لتحضر طبقاً لها، قال:

- لا يا روزا! اذهبي مع ميريلا إلى الشرفة، واحجزا الكراسي، سنختار، أنا وفرانكو، لكما الطعام.

وفي الشرفة، جلست ميريلا على كرسي، متنفسة الصعداء: «لا يمكنني الوقوف طويلاً، هذه الأيام!».

اتكأت هارييت على الدرابزين بجانبها: «متى موعد ولادتك؟».

- يوم عيد الميلاد. سيكون هدية رائعة. ما أشد لهفتي إلى حمل الطفل بين ذراعي. حدثيني عن نفسك، يا روزا. هل هناك شخص تريدين الزواج به؟

أجابت هارييت وهي تفكر في باسكال تافيرنير: «ربما!».

ابتسمت ميريلا، وبدلاً من الإلحاح لمعرفة التفاصيل، أخذت تتحدث عن سرور السنيورا فورتيناري بعودة روزا إليها.

قال دانتي وهو ينضم إليهما مع الآخرين:

- كلنا مسرورون. لقد وضع لك فرانكو مقداراً ضئيلاً جداً من الطعام،

يا ميريلا! هل يميتك زوجك جوعاً؟!

دفع فرانكو دانتي ممازحاً بخشونة جعلت أطباق الطعام تهتز قليلاً. وفي غمرة الضوضاء، تناول ليو روزا طبقها مع فوطة مطوية على شكل زنبقة، بسطها ثم وضعها على حجرها، وقال وهو يجلس بجانبها:

- كيلا يتلف هذان المعتوهان ثوبك.

- هل أعجبك الثوب؟

ثم شعرت بوجهها يتوهج حين أخذ ليو يتأملها طويلاً بنظرة شاملة استمتع بها الآخرون للغاية. وقال دانتي: «أعجبنا جميعاً! إنك فاتنة، يا روزا!».

قالت ميريلا: «وهذا ما زاد في غضب صوفيا!».

قالت ذلك بضحكة سرعان ما تحوّلت إلى سعال عندما خرجت السيدة إلى الشرفة لتجلس معهم، مصحوبة بزوجها.

قالت صوفيا وهي تبتسم لليو: «توقّعنا أن نجدك هنا، فجئنا لنجلس معكم. الجوّ حار في الداخل! أحضر لي كرسياً يا ماركو».

نظرت هارييت باستخفاف إلى صوفيا روسي وهي تجر كرسيها إلى جانب ليو، وحاولت، بشكل عديم الذوق، أن تحوّل انتباهه عن ابنة عمته. هذا بينما جلس زوجها بجانب هارييت وأخذ يتحدث إليها. ولكن عندما لاحظت زوجته استغراقه في ذلك الحديث، أخذت تلقي أسئلة عن موسم العنب لدى آل فورتيناري لهذه السنة كي تجعل الحديث عاماً.

تجاوب ليو معها بأدب، لكن دانتي قاطعها هازلاً يشكو من الساعات الطويلة التي يرغمه فيها أخوه، سيّد العبيد المتجبّر، القاسي، على العمل إلى حين إتمام حصاد العنب.

قالت ميريلا وهي تسلم صحنها نصف الفارغ لزوجها القلق: «يعمل ليو ساعات أطول بكثير مما تعمل أنت».

سألها زوجها: «ألست جائعة يا عزيزتي؟».

فقالت تعتذر: «لم تعد معدتي تتسع للمزيد». ثم قالت لدانتي مؤنبة:

- أرأيت؟ لهذا السبب لم يملأ فرانكو لي الطبق بالطعام كما تملأه لنفسك، أيها النهم!

قال ماركو بارتياح: «هكذا كانت صوفيا عندما كانت حاملاً بطفلنا».

قالت صوفيا بحدة: «أنا واثقة من أن أحداً لا يحب سماع هذا الحديث».

ثم سألت عمَّن استأجرت السنيورا فورتيناري لتنسيق الزهور بهذا الشكل، وقالت وهي تميل نحو روزا لتناول زوجها طبقها الفارغ:

- إنه تنسيق رائع! يجب أن أتعاقد مع نفس الشركة لحفلتي القادمة.

قال ليو بلهجة شعرت معها هاريت أنه يحاول كبت ضحكته: «لقد نسقتها روزا!».

قالت ميريلا بدهشة: «أحقاً أنت، يا روزا؟! يا للبراعة!».

- أظنه جزءاً من تدريبك الفندقي.

قالت صوفيا ذلك، وغضبت من نفسها لأنها ذكرت الأزهار، ثم أدارت ظهرها لهاريت مناولة ليو كوبها: «هل لك أن تسكب لي شراباً من فضلك؟».

أخذت هاريت تفكر في ليو وهي ترشف الشراب بحذر، ولكنها فجأة شهقت لأن صوفيا وهي تنهض انسكب كوبها كله على ثوب روزا الغالي الثمن الذي ترتديه هاريت!

ارتفع الضجيج على الفور حين هتف كل شخص بفزع، بينما قفز دانتي وليو لإحضار فوط لتجفيف البقعة.

قالت ميريلا متكدّرة: «يجب أن تخلعيه حالاً، يا روزا. يا لهذا الثوب الرائع!.. ربما الماء البارد...».

قالت صوفيا بأسف زائف: «آسفة جداً! لكنه إذا تلف فهذا غير مهم فسيدفع ماركو ثمن ثوب آخر».

أجابت هاريت متوترة، متلهفة إلى قَرْص أنف صوفيا: «هذا غير ضروري!».

قال ماركو روسي وهو يصعق زوجته بنظرة قاتلة: «بل أصرّ على ذلك.

إنها غلطة زوجتي! لهذا أرجو منك أن تسمحي لي بشراء بديل عنه يا آنسة روزا».

فقال ليو ببرودة: «هذا غير ضروري يا ماركو! سأفعل أنا ذلك».

قال دانتي بسرعة: «أسرعي إلى غرفتك وغيري الثوب، يا روزا قبل أن نعرف نونا. ولا بأس إذا ارتديت بنطلونك الجينز».

قالت صوفيا بفظاظة: «وما الداعي لكل هذا الاهتمام؟».

فألقى عليها ليو نظرة جعلتها تنكمش خوفاً:

- لا نريد شيئاً يفسد عيد ميلاد جدتي!

أمسك ماركو روسي بذراع زوجته، وقال: «تعالي، ولنحاول أن نكون ضيوفاً طيبين ونتنقل من هنا يا عزيزتي».

خلعت هاريت حذاءها، مسرورة لاستغراق الجدة في حديث مع جماعة من أصدقائها في الصالون، ثم صعدت السلم مسرعة دون صوت مسموع، ولد آلمها تلف ذلك الثوب الذي كان أجمل ما لبست في حياتها. وعندما خلعته وجدت أن بقعة الشراب سرت في القماش.. أخذت تشتم صوفيا ولأنها لم تجد ولناً للاغتسال مسحت جسدها وارتدت ملابس داخلية نظيفة، ثم ارتدت الثوب الأسود القصير. فكرت بغضب: لعل صوفيا قصدت، بفعلتها هذه إيذاء روزا! إذا تصوّرت أنها هزمتها بذلك، فهي مخطئة!.. ثم أخذت تسوّي الثوب على صدرها. كان الثوب يظهر كل استدارة في جسمها بشكل جميل، وهذا ما جعل هاريت تصفر بصمت وهي ترى صورتها في المرآة، ثم مشطت شعرها وأصلحت زينتها. عندما خرجت من الغرفة وجدت ليو ينتظرها عند المدخل.

قال بشكل تلقائي عند رؤيتها: «يا إلهي! أرجوك، ابقي بعيدة عن صوفيا! نظرة واحدة منها إلى هذا الثوب تجعلها تطعنك بواحدة من سكاكين مائدة نونا!».

- إنه البديل الوحيد الذي لدي. لو نزلت ببنطلون الجينز لكان ذلك انتصاراً لصوفيا.

ـ بل أنت المنتصرة، في جميع الأحوال، يا روزا!

قال ذلك بصوت عميق جعلها تبتعد عنه غريزياً، وقالت بسرعة: «يجب أن ننزل قبل أن تنتبه نونا إلى غيابي».

ـ لقد حصل هذا فعلاً، قلت لها إنك سكبتِ الشراب على ثوبك فصعدت لتستبدليه. لم آت على ذكر صوفيا.

ـ هذا حسن! إنها تكرهني حقاً، أليس كذلك؟ لا بد أنها كانت مولعة جداً بأخيها وأختها. لكنها لا تضمر لك أي حقد كما يبدو

قالت ذلك بلهجة ماكرة، فوقف أسفل السلم: «أليس لديك فكرة عن سبب كرهها لك، يا روزا؟».

ـ لديّ فكرة مبهمة، هذا كل شيء!

ـ سأشرح لك فيما بعد كل شيء.

ثم أمسك بيدها يجرها إلى الصالون حيث كانت السنيورا فورتيناري جالسة مع دانتي وميريلا وزوجها فرانكو. وعندما رأتها، أشارت إليها بالتقدم نحوها وقالت: «روزا! يا لخسارة ثوبك!».

ثم ابتسمت بمكر وتابعت: «رغم أن البديل لا يخيّب الأمل!».

تصاعدت ضحكات أصدقائها. ثم قبلت ميريلا جدتها تودعها، وتأبطت ذراع هاريت من جهة، وذراع زوجها من الجهة الأخرى، ثم طلبت من أخويها أن يرافقاها إلى الباب.

ـ أريد أن أودّع الآخرين.

فقال زوجها: «أتعنين أنك تريدين أن تري وجه صوفيا عندما ترى ثوب هاريت؟!».

فقال دانتي ضاحكاً: «ألسنا جميعاً نريد ذلك؟».

أما ليو فهزّ رأسه بعنف ساخر: «حذار، أنتما الإثنان! أنا أحب ماركو كثيراً».

فقال دانتي: «وأنا أيضاً. يا للمسكين! تصور أنه متزوج بصوفيا!».

قالت ميريلا هامسة وهم يدخلون إلى غرفة الطعام: «اسكتوا!».

كان الزوجان روسي في الطرف الآخر حيث كانت صوفيا بين مجموعة من معارفها عندما دخلت ميريلا. التفتت باسمة لتلقي التحية على ميريلا، ولكن كلامها انقطع وتجمدت ابتسامتها على شفتيها عندما وقع نظرها على هاريت.

غمز ماركو روسي بعينه باستحسان: «ها أنت ذا قد أحضرت ثوباً آخر بسرعة، يا ليو! ويا له من ثوب، يا آنسة روزا، إذا سمحت لي بهذا القول».

كادت هاريت تشعر بالرثاء لصوفيا التي بدت مصعوقة لحظة قصيرة، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، وتلفظت ببعض التعليقات عن بعد نظر روزا لأنها أحضرت أكثر من ثوب، ثم التفتت إلى زوجها مبتسمة ابتسامة مشرقة محمومة، وقالت إنها جاهزة للعودة إلى البيت.

بعد خروج آل روسي، ومرافقة ميريلا وزوجها إلى السيارة، جر دانتي هاريت إلى مجموعة من الأصدقاء كانوا أكثر ترحيباً بها من صوفيا، أما هاريت فتوجه نحو جدته ليتحدث إليها. أخذت هاريت تتحدث بطلاقة مع الآخرين. ورغم رفقة دانتي الجيدة، وحرص الضيوف الآخرين على محادثتها بلطف ومودة، إلا أنها لم تستعد بهجتها إلا بعد عودة ليو لينضم إليهم.

تنبّهت بذعر إلى أنها افتقدته حقاً. هذا جنون! عليها أن تسيطر على نفسها لأنها ستعود إلى بلدها بعد يوم واحد. بهذا حدّثت نفسها.

سألها ليو هامساً: «هل كل شيء على ما يرام؟».

ـ تماماً! كيف حال نونا؟ هل هي متعبة؟

ـ تصر على البقاء نصف ساعة أخرى، وأثناء ذلك سيطلب دانتي سلفيا إحضار القهوة. بعد ذلك، يقدم كل واحد احترامه، ثم يعود إلى بيته.

كان المنزل هادئاً. تحدثت السنيورا قليلاً عن نجاح حفلتها، ثم قبلت حفيديها وصعدت إلى غرفتها بسعادة غامرة.

قال ليو لأخيه: «انصرف الآن يا دانتي، وسألحق بك».

بدا التمرد لحظة على دانتي. لكنه، إزاء نظرة أخيه، ابتسم متفلسفاً لهاريت ثم ودعها بحرارة، وتركهما.

سألها ليو: «هل أنت متعبة جداً؟».

ـ بل أنت المنتصرة، في جميع الأحوال، يا روزا!

قال ذلك بصوت عميق جعلها تبتعد عنه غريزياً، وقالت بسرعة: «يجب أن ننزل قبل أن تنتبه نونا إلى غيابي».

ـ لقد حصل هذا فعلاً، قلت لها إنك سكبتِ الشراب على ثوبك فصعدت لتستبدليه. لم آت على ذكر صوفيا.

ـ هذا حسن! إنها تكرهني حقاً، أليس كذلك؟ لا بد أنها كانت مولعة جداً بأخيها وأختها. لكنها لا تضمر لك أي حقد كما يبدو

قالت ذلك بلهجة ماكرة، فوقف أسفل السلم: «أليس لديك فكرة عن سبب كرهها لك، يا روزا؟».

ـ لديّ فكرة مبهمة، هذا كل شيء!

ـ سأشرح لك فيما بعد كل شيء.

ثم أمسك بيدها يجرها إلى الصالون حيث كانت السنيورا فورتيناري جالسة مع دانتي وميريلا وزوجها فرانكو. وعندما رأتها، أشارت إليها بالتقدم نحوها وقالت: «روزا! يا لخسارة ثوبك!».

ثم ابتسمت بمكر وتابعت: «رغم أن البديل لا يخيّب الأمل!».

تصاعدت ضحكات أصدقائها. ثم قبلت ميريلا جدتها تودعها، وتأبطت ذراع هاريت من جهة، وذراع زوجها من الجهة الأخرى، ثم طلبت من أخويها أن يرافقاها إلى الباب.

ـ أريد أن أودّع الآخرين.

فقال زوجها: «أتعنين أنك تريدين أن تري وجه صوفيا عندما ترى ثوب هاريت؟!».

فقال دانتي ضاحكاً: «ألسنا جميعاً نريد ذلك؟».

أما ليو فهزّ رأسه بعنف ساخر: «حذار، أنتما الإثنان! أنا أحب ماركو كثيراً».

فقال دانتي: «وأنا أيضاً. يا للمسكين! تصور أنه متزوج بصوفيا!».

قالت ميريلا هامسة وهم يدخلون إلى غرفة الطعام: «اسكتوا!».

كان الزوجان روسي في الطرف الآخر حيث كانت صوفيا بين مجموعة من معارفها عندما دخلت ميريلا. التفتت باسمة لتلقي التحية على ميريلا، ولكن كلامها انقطع وتجمدت ابتسامتها على شفتيها عندما وقع نظرها على هاريت.

غمز ماركو روسي بعينه باستحسان: «ها أنت ذا قد أحضرت ثوباً آخر بسرعة، يا ليو! ويا له من ثوب، يا آنسة روزا، إذا سمحت لي بهذا القول».

كادت هاريت تشعر بالرثاء لصوفيا التي بدت مصعوقة لحظة قصيرة، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، وتلفظت ببعض التعليقات عن بعد نظر روزا لأنها أحضرت أكثر من ثوب، ثم التفتت إلى زوجها مبتسمة ابتسامة مشرقة محمومة، وقالت إنها جاهزة للعودة إلى البيت.

بعد خروج آل روسي، ومرافقة ميريلا وزوجها إلى السيارة، جر دانتي هاريت إلى مجموعة من الأصدقاء كانوا أكثر ترحيباً بها من صوفيا، أما ليو فتوجه نحو جدته ليتحدث إليها. أخذت هاريت تتحدث بطلاقة مع الآخرين. ورغم رفقة دانتي الجيدة، وحرص الضيوف الآخرين على محادثتها بلطف ومودة، إلا أنها لم تستعد بهجتها إلا بعد عودة ليو لينضم إليهم.

تنبّهت بذعر إلى أنها افتقدته حقاً. هذا جنون! عليها أن تسيطر على نفسها لأنها ستعود إلى بلدها بعد يوم واحد. بهذا حدّثت نفسها.

سألها ليو هامساً: «هل كل شيء على ما يرام؟».

ـ تماماً! كيف حال نونا؟ هل هي متعبة؟

ـ تصر على البقاء نصف ساعة أخرى، وأثناء ذلك سيطلب دانتي من سلفيا إحضار القهوة. بعد ذلك، يقدم كل واحد احترامه، ثم يعود إلى بيته.

كان المنزل هادئاً. تحدثت السنيورا قليلاً عن نجاح حفلتها، ثم قبلت حفيديها وصعدت إلى غرفتها بسعادة غامرة.

قال ليو لأخيه: «انصرف الآن يا دانتي، وسألحق بك».

بدا التمرد لحظة على دانتي. لكنه، إزاء نظرة أخيه، ابتسم متفلسفاً لهاريت ثم ودعها بحرارة، وتركهما.

سألها ليو: «هل أنت متعبة جداً؟».

كانا واقفين في الردهة ينظران إلى الجدة التي كانت ترتقي الدرج.

ـ قليلاً!

قالت هاريت هذا مع أنها كانت مرهقة في الواقع. لكنها لم تقل ذلك لئلا يشعر ليو بضرورة الخروج مباشرة.

كان واضحاً أن ليس في نية ليو الخروج إذ أخذها إلى الصالون وأغلق الباب خلفهما بإحكام، ثم جرَّ هاريت ليجلسها بجانبه على الأريكة المخملية وابتسم ساخراً إزاء النظرة المتوجسة البادية في عينيها. ثم قال يطمئنها:

ـ روزا! أريد فقط أن أتحدث إليك. لا أنكر أنني راغبٌ فيك بشدة، ولكن هذا منزل جدتي! وقد سببنا، أنا وأنت، لها كثيراً من الإزعاج في الماضي ولا ينبغي أن نجازف بالمزيد.

تملك هاريت شيء من الراحة: «ما الذي تريد أن تحدثني عنه إذن؟».

أمسك ليو بيدها يتأملها بصمت، لحظة:

ـ ظننتك تريدين أن تعلمي لماذا، بعد كل تلك السنوات، لا تزال صوفيا تُضمر لك مثل ذلك الحقد.

ـ أظن السبب هو أنَّكَ ضربت أخاها.

ـ هذا جزء من السبب، لكنها تلومك لأشياء أكثر من هذا بكثير.

هزت هاريت رأسها بغضب مفاجيء، وشعرت بالرغبة في الهرب والاختفاء بدلاً من سماع الحقيقة:

ـ أرجوك يا ليو، لا تدعنا ننقب في الماضي أكثر من ذلك.

استدار ينظر إليها: «ألا يتملكك الفضول لمعرفة سبب كراهية صوفيا لك إلى حد إتلافها ثوبك؟».

ـ لقد سبق أن عرفت السبب، يا ليو. يبدو أن صوفيا تلاحقك. ولسبب ما، تصورت أنك تلاحقني.

التهبت عيناه فجأة: «وهي على صواب، لأنني أريدك فعلاً».

***

٥ ـ هل يمكن أن تنسى؟

شعرت هاريت بنظرات ليو المسيطرة تنوّمها مغناطيسياً، لذا شعرت بالراحة عندما اخترق أخيراً الصمت المتوتر الذي ساد بينهما:

ـ تعلمين جيداً مدى الرغبة التي أشعر بها نحوك، يا روزا، بعد أن أصبحت امرأة. ولكن...

فقاطعته: «لكنك لم تشعر بذلك عندما كنت مراهقة».

هز ليو كتفيه: «ومع هذا، صوفيا تعتقد بأن ذلك قد حدث. عندما فسخت لويزا الخطبة، قدمت صوفيا نفسها لي بدلاً من أختها. والحقيقة أنها لم تهتم لمعاملتي أخاها، بل كانت شاكرة لذلك، كما أخبرتني بنفسها، لأن هذا أغضب لويزا. وكانت صوفيا تعتقد أن خطبتي لأختها لم تكن إلا لإرضاء والدينا لأجل المصلحة، وأنني كنت أريدها هي بدلاً من أختها. وعندما أخبرتها، بأنها مخطئة، تملكها غضب شديد واتهمتني بأنني أريدك أنت، لأن أموالك أكثر من حصتها في كروم أسرتها. بعدها مباشرة تزوجت ماركو رومي. ومنذ ذلك الحين لا نتقابل إلا في مناسبات كهذه».

سحبت هاريت نفساً عميقاً: «أظنني محظوظة لأنها لم تلق عليّ سوى العصير».

توتر فم ليو: «لم أتوقع قيامها بعمل كهذا. لكن نونا أصرت على أن ندعو صوفيا ولويزا لكي نري الناس أن العداوة القديمة زالت».

فقالت هاريت متأثرة: «أنا مسرورة لأن لويزا لم تحضر».

www.rewity.com

فهز ليو رأسه: «الويزا مختلفة جداً عن صوفيا، وكرامتها تأبى عليها التصرّف بهذا الشكل أمام الناس. لقد اعتذرت مدعية المرض، لكنني أعتقد أنها وجدت من الأفضل عدم الحضور الليلة».

وهذا ما كانت هاريت تحمد الله عليه.

ـ شكراً لهذا الإيضاح، يا ليو. هل ستراني قليلة الأدب إذا قلت إنني متعبة وأريد أن أنام؟

ـ لا، طبعاً!

ومد يده يساعدها للوقوف على قدميها، ثم قطب جبينه: «هذا غريب! أتذكرك أطول قامة!».

وهذا صحيح. أحد الفوارق القليلة بينها وبين روزا هو ثلاثة إنشات في الطول، فقالت بمرح:

ـ مضى وقت طويل منذ رأيتني.

ثم حبست أنفاسها للنظرة التي بدت في عينيه، وقال برقة:

ـ طويل جداً! والآن بعد أن اجتمعنا مرة أخرى، أريد أن أعتذر عن دوري في التفريق بينك وبين نونا.

قالت متذكرة ندم روزا: «إنه ليس ذنبك فقط. كان عليّ الاعتذار لنونا عما فعلت. لكن مرور الزمن جعل الأمر أصعب. لا سيما أن أبي لم يشجع أمي على رأب الصدع بيننا».

ـ ربما كان أبوك يظن أنه كان علينا أن نرعى ابنته أكثر مما فعلنا.

قالت هاريت متذكرة مراهقتها هي: «المراهقات المتمردات لا يقبلن برعاية أحد».

ـ ومع ذلك، عندما اكتشفتك مع غيدو ثار غضبي لجرأته على معاملة قريبة لي بتلك الطريقة. من حسن حظه أنني لم أقتله.

تراجعت هاريت بشكل عفوي: «أرجوك يا ليو. دعنا ننسى الماضي الآن».

حدّق ليو فيها وعلى وجهه تعبير لم تدركه إلا بعد فوات الأوان...

أصبحت بين ذراعيه وكان الاستسلام هو المسيطر. فلو استعمل قوته، وهي قوة لا يستهان بها، لقاومته؛ لكن رقته البالغة ولمساته الحنونة جعلتها تستسلم عاجزة.

ـ هل يمكنك أن تشعري كم أريدك؟

خفق قلبها بشدة وتملكتها مشاعر لم تتصورها قط من قبل.

نظر إليها بعينين فاحصتين، وهذا ما يتعارض مع أنفاسه المتقطعة: «روزا؟».

تلاشت حرارة روزا ورغبتها فجأة. فدفعته عنها... أخذت تنبه نفسها إلى أنه يريد روزا وليس هاريت فوستر! وعندما تجنبت النظر إلى عينيه، وقف ليو ببطء ثم أمسك بوجهها بخشونة:

ـ هل هذه عقوبة؟ قصاص لي لعدم مبالاتي بك حينذاك؟

أجابت بصوت أجش، ناظرة إليه بشيء من التمرد بدلاً من إلقاء نفسها بين ذراعيه: «لا! بل هو شعور بالتعقل تملكني».

قال وقد هدأ بشكل ملحوظ: «لشدّ ما تغيرت! لم تكن روزا الصغيرة تفهم التعقل».

ـ المراهقون لا يتصفون بالتعقل.

قال وهو ينظر إليها هازلاً: «هذا صحيح. أعليّ فقط أن أقبل يدك وأقول، تصبحين على خير؟ هل هذا ما تريدينه، يا روزا؟».

ـ لكنك قلت إنك تريد أن تراعي حرمة هذا المنزل.

ـ هل هذا يعني أنك ستكونين أكثر تجاوباً لو دعوتك إلى بيتي؟

ـ لا!

نظرت هاريت في عينيه، ثم نطقت بالكذبة التي اعتقدت أنها ستضع حداً لهذه المناوشات الخطرة: «إنني مغرمة برجل آخر!».

وروزا كانت كذلك، فعلاً، على الأقل.

كان التأثر في ليو سريعاً. فقد رأت الرغبة تتبدد من عينيه، ليحل مكانها البرود الذي كان فيهما عندما التقيا لأول مرة وهذا جعلها تشعر بالوحشة.

www.liilas.com

ـ لم تتغيري، على كل حال، ما زلت تحبين العبث بالأخطار. لو أخبرتني بذلك منذ البداية، لما لمستك!

ـ آسفة!

قالت ذلك بصوت حزين، ثم منحته ابتسامة صغيرة مليئة بالوحشة.

ـ لكنك هنا، يا ليو، ومن الطبيعي أن أشعر بالانجذاب نحوك.

اقترب ليو منها وغضبه الهادىء ينذر بالخطر: «دانتي هو أيضاً ابن خالك. فهل تسمحين له بمعانقتك؟».

ـ لا، طبعاً!

قالت ذلك بذعر، فضحك بقسوة: «وكيف أعلم أن هذا صحيح؟».

أجابت بحدة، وقد تملكها غضب مفاجيء:

ـ بإمكانك أن تسأله. ربما عليك أن تسأل فرانكو أيضاً، لتتأكد من أنني لم أحاول إغواءه لأبعده عن ميريلا!

وارتدت على عقبيها، لكن ليو أمسك بذراعها قبل أن تتمكن من فتح الباب. وسألها: «من هو؟».

نظرت إليه مستفهمة، فقال من خلال أسنانه: «هذا الرجل الذي تحبينه».

ـ أفضّل عدم ذكر اسمه.

ذعرت وهي تراه يبتسم مطمئناً. ثم يقول بانتصار: «معنى هذا أنك كاذبة. ليس هناك حبيب خفي!».

شعرت فجأة بالملل فقالت: «صدق ما تريد. أنا متعبة، يا ليو، وأريد أن أنام».

أخذها بين ذراعيه يحتضنها بحنان بعث في عينيها دموعاً مفاجئة، فانحنى يمسح دموعها:

ـ لقد تعبت كثيراً لجعل عيد ميلاد نونا سعيداً. امنحيني عناقاً أخيراً، يا ابنة عمتي الصغيرة، فأدعك تذهبين.

رفعت هاربيت وجهها إليه مطيعة، ثم تذكرت الضرر الذي يلحقه هذا

روزا، فأشاحت عنه بوجهها: «لا، يا ليو. لا أستطيع!».

بدت القسوة على وجهه: «تعنين أنك لا تريدين. لكنني أرفض تصديق لصنك عن العاشق الغامض».

ـ هذا شأنك.

قال باسماً بأدب متكلّف: «ربما أنت أكثر حكمة مني. لقد بعثت الفوضى في حياتي مرة، وأكون مجنوناً لو سمحت لك بتكرار ذلك مرة أخرى. وأخشى أن لا يتحقق حلم نونا».

قطبت هاربيت حاجبيها: «ماذا تعني؟».

ـ قالت لي هذا المساء إنها سعيدة جداً لعودة الصداقة بيننا، وأوضحت أنها تريد منا أن نكون أكثر من ذلك.

ورفع حاجبيه ساخراً: «ألم يكن لديك فكرة عن هذا الأمر؟».

هزت رأسها بعنف: «لا، لا! لو كنت أعلم بوجود أقل احتمال لهذا، لما أتيت!».

وهذه هي الحقيقة كما فكرت بحزن.

انحنى ليو محيياً بتكلف: «لقد كشفت عن نفسك بصراحة، يا روزا. صراحة تجعلني أريحك من صحبتي بقية زيارتك. وداعاً!».

وارتدّ مغادراً الغرفة.

خلعت هاربيت حذاءها ثم تأكدت من إقفال الباب وارتقت السلم الحجري. وعندما وصلت إلى غرفتها أغلقت بابها ثم خلعت ثوبها الملتصق بجسمها واستعدت للنوم. وفي السرير أخذت تذكّر نفسها بأن روزا نصحتها بألا تُقيم مودة مع ليو. فإن كان غاضباً من «ابنة عمته» فلا شيء تغيّر.

***

في الصباح التالي كانت هاربيت من التعب بحيث لم تستطع التحدث عن الحفلة أثناء الفطور.

قالت الجدة: «كان عليك أن تدعي ليو يخرج مبكراً الليلة الماضية».

www.rewity.com منتديات روايتي

- إنه لم يمكث طويلاً، يا نونا.

ابتسمت السنيورا التي كانت هي أيضاً تشعر بالإنهاك بعد مجهود الليلة الماضية ابتسامة محبة:

- قلبي سعيد برؤيتكما، أنت وليو، تعودان صديقين مرة أخرى، يا حبيبتي، أعلم أنني عجوز حمقاء، لكنني لا أستطيع منع نفسي من الأمل في أن تصبحا أكثر من ذلك، بعد أن أصبح كل شيء منسياً.

أوشكت هاريت على القول بشكل حاسم، بالنيابة عن روزا، إن هذا مستحيل، ولكنها لما رأت وجه الجدة يتغير لونه ثم ينقطع نفسها سارعت تسألها: «ماذا حدث؟ هل أنت مريضة يا نونا؟».

مالت السنيورا إلى الخلف في كرسيها وسحبت نفساً ضعيفاً ثم قالت بصعوبة:

- دوائي! إنه في غرفتي بجانب السرير.

أسرعت هاريت تصعد السلم وهي تنادي سلفيا، وفتحت باباً بالخطأ قبل أن تدخل الغرفة المطلوبة حيث وجدت الدواء ثم أسرعت هابطة السلم إلى غرفة المائدة، وركعت بجانب كرسي السنيورا وأخذت تدلك يديها الباردتين.

سألتها بلهفة: «هل أستدعي الطبيب؟».

أجابت بصوت متقطع إنما حازم بشكل طمأنها: «لا، يا طفلتي! كل ما أحتاجه هو حبة دواء صغيرة تحت لساني فأصبح على ما يرام».

بعد ذلك بدقائق كانت السنيورا فورتيناري مستقرة على الأريكة في الصالون، وهاريت على كرسي بجانبها. كانت «الحبة الصغيرة» قد بدأت تؤتي مفعولها، فوجه الجدّة استعاد بعض لونه.

سألتها هاريت: «أتشعرين بتحسن؟».

- بتحسن كبير! لقد انشغلت سلفيا بي أيضاً. [وابتسمت بأسى]... كنت حمقاء لتأخري في السهر، لكنني كنت مستمتعة بالحفلة إلى حد جعلني أنسى أنه قد يكون أمامي عيد ميلاد آخر.

هتفت هاريت: «لا تتحدثي بهذا الشكل، سيكون لك أعياد ميلاد

كثيرة، بإذن الله. وروزا ستكون هنا في المستقبل لتشارك في الاحتفال».

ابتسمت السنيورا بمحبة: «يا طفلتي العزيزة! ما أكثر سروري لمجيئك! ولشدّ ما أنا نادمة لأنني لم أطلبك قبل الآن. هل تصفحين عني؟».

قالت هاريت وقد تملكها الشعور بالذنب:

- أرجو منك أن لا تتحدثي عن الصفح. دعينا فقط نستمتع بوقتنا هذا معاً قبل رحيلي.

نظرت إليها الجدة بعينين غائمتين وقالت باستعطاف: «وهل عليك أن ترحلي بهذه السرعة، يا روزا؟ ألا يمكنك البقاء مدة أطول قليلاً؟».

ابتسمت هاريت، محاولة إخفاء انفعالها:

- ليس هذه المرة، يا نونا. عليّ أن أعود إلى العمل لأن توني بحاجة إليّ.

تنهدت الجدة: «طبعاً! إنني عجوز أنانية. كان واضحاً الليلة الماضية لي، ولسواي، أنكما، أنت وليو، مهتمان ببعضكما البعض. ولأنني أعتقد أنك مغرمة به، وهو مغرم بك، فإن أغلى أمنية لدي هي أن أراكما متزوجين قبل أن أموت.

حدقت هاريت إليها بذعر وعجز. ثم قالت بصوت أبحّ: «ولكن، يا نونا...».

وتنحنحت ثم عادت تقول: «هذه ليست فكرة جيدة، في الواقع. لأن بيننا قرابة شديدة».

- هذه ليست بالعقبة التي لا يمكن التغلب عليها. [ونظرت بحدة في عيني هاريت] هل يمكنك أن تقولي، صادقة، إنك لا تشعرين بشيء نحو ليو؟

هزت هاريت رأسها ببطء، شاعرة بالهزيمة:

- هذا لا يغيّر شيئاً. ليو يراني جذابة، أعلم هذا، ولكن...

- تعنين أنه يرغب فيك؟

أجابت هاريت بابتسامة ملتوية: «ربما. لكن هذا لا يعني أنه يريد أن يتزوجني».

www.rewity.com

فقالت الجدة بحزم: «بل أظن ذلك. فقد حان وقت زواج ليو. [ثم ربّتت على يد هاربيت] والآن أريد أن أنام قليلاً. اصعدي أنت لترتاحي يا روزا، أو اجلسي في الشرفة مع كتاب».

كانت هاربيت مضطربة اضطراباً لم تستطع معه الجلوس. فلم تكن تريد شيئاً أكثر من الهرب إلى بيتها في هذه اللحظة، قبل أن تتعقد الأمور بحيث لا يعود بإمكانها العثور على حل. وعندما تأكدت من أن السنيورا في أتم راحة، أخبرت سلفيا بأنها ستذهب إلى الحديقة. ثم أخذت تجول في أنحائها حتى اكتشفت ممرات بين «مساكب» الأزهار والأسيجة العالية، مغطاة بالطحالب، يؤدي أحدها إلى بركة صغيرة مستديرة فيها تمثال حجري لطفل بريء ينفخ في صدفة بحرية فينبثق منها الماء. جلست هاربيت بجانبها برهة، تفكر في أمورها، ثم نهضت، وهي ما زالت تشعر بالضيق، ودخلت المنزل لتحضر حقيبتها وتفقد المريضة النائمة. وبعد ذلك خرجت مرة أخرى لتتسلق الدرجات الصاعدة إلى الشرفة خلف الثيلا حيث كانت شجرة كستناء تظلل أنقاض ما يبدو أنه معبد قديم.

داخل جدران المعبد المنهارة المفتتة، جلست هاربيت على الأرض مستندة إلى حجر بارد، مسرورة بفيء شجرة الكستناء. أغمضت عينيها، وشعرت بتعب مفاجيء لم تستطع معه التفكير في حل المشاكل التي يبدو أنها تتضاعف كل ساعة. تنهدت، ثم أخرجت تليفونها الخليوي من حقيبتها واتصلت بأمها لحظة قصيرة، وبعد ذلك اتصلت بروزا على الرقم الذي أعطتها إياه للطوارىء، ولكنها أُخبرت بأن الآنسة روزا غائبة طوال النهار.

لم تجد فائدة من تلك الناحية. وضعت التلفون جانباً وحاولت تعزية نفسها بأنها في مثل هذا الوقت من الغد، ستكون في طريقها من «توسكاني» إلى وطنها، وأنها لن ترى مرة أخرى السنيورا فورتيناري أو ليو. وبدلاً من أن تجد السلوى والعزاء فقد جعلتها هذه الفكرة تشعر بالتعاسة. وضعت رأسها بين ركبتيها وأخذت تبكي بصمت، غير واعية أنها ليست وحدها؛ إذ باغتها صوت عدائي خشن يقول: «أتعودين لزيارة مكان حماقتك؟!».

أجفلت هاربيت ثم رفعت رأسها تمسح دموعها بقبضتها وحدّقت باستياء إلى ليو فورتيناري الذي تبدلت أسارير وجهه بشكل غريب عندما رأى عينيها المنتفختين ووجهها المبلل بالدموع. فهبط على ركبتيه بجانبها وأمسك يديها، ثم سألها:

ـ ما هذا، يا روزا؟ هل أنت مريضة؟

فهزت رأسها: «لا! لكن نونّا كانت مريضة بعد الفطور».

ـ أعلم هذا. لقد اتصلت بي سلفيا.

قالت وهي تجذب يديها لتبحث في حقيبتها عن منديل ورقي: «هذا إذن سبب وجودك هنا».

ـ جزئياً، أخبرتني سلفيا أن نونّا أرهقت نفسها كثيراً الليلة الماضية فاحتاجت إلى حبة من دواء القلب. لكن الأمر لم يكن خطراً.

ـ بدا خطراً بالنسبة إليّ.

قالت هاربيت هذا وهي ترتجف، فوضع ليو ذراعه حولها يقربها منه.

ـ رأيت نونّا لتوي وهي على أحسن حال؛ وقد أرسلتني للبحث عنك.

ـ لم أسمع صوت سيارتك!

قالت ذلك بصوت متردد، مدركة أن عليها الابتعاد عنه. لكنها لن تشعر بلمسات ليو بعد اليوم، أو تسمع صوته، وهي فكرة جعلت الكآبة تتملكها مرة أخرى وجعلتها تدفن وجهها في قميصه.

استند ليو بظهره إلى الجدار المهدم ثم احتضنها ملامساً شعرها وأنفاسه الساخنة تلفح أذنها، وهمس بكلمات يخفف بها عنها لم تكد تفهمها بسبب الكدر الذي يسيطر على قلبها.

قال حين هدأت قليلاً: «هذا آخر مكان ظننت أنني سأجدك فيه. فلا عجب أن تبكي».

انتبهت هاربيت، لقد ذكر ليو شيئاً عن مكان الحماقة. رفعت بصرها فرأت عينيه تضيقان وسألها فجأة:

ـ بما أننا هنا، يا روزا، فأخبريني بالحقيقة. هل أرسلت بطلبي ذلك

www.liilas.com

اليوم لتتأكدي فقط من أنني رأيتك هنا مع غيدو؟

وقفت بسرعة، ثم راحت تنفض الغبار عن بنطلونها دون أن تنظر إليه: «لا أتذكر!».

وقف ليو ثم استند إلى الجدار. وعندما بقيت صامتة، لوى شفتيه، ثم التفت إلى ناحية من المكان قائلاً:

ـ ربما عليّ أن أنعش ذاكرتك. حاولي أن تتصوري شعوري حين سمعتك تصرخين. اندفعت إلى هنا لأجدك تقاومين، مذعورة.. كنت تصرخين به أن يتوقف. فتدخلت وأبعدته عنك ثم أمرتك بالذهاب إلى البيت، ثم انهلت عليه ضرباً لأشفي غليلي منكما أنتما الاثنين، ولكن دون جدوى.

عطت هاريت وجهها برعب، بينما تابع هو قائلاً بقسوة:

ـ افترضت أنك أنت التي أغريته بذلك وهذا ما جعله ينسى تربيته ودينه في سبيل الحصول عليك.

قالت وهي ترتجف: «كفى يا ليو! أرجوك!».

ـ لا، يا روزا! يجب أن تعلمي أن غيدو بكى كالطفل الصغير حين انتهيت منه. وبعد ذلك اتهمني الجميع بالقسوة والوحشية إذ ضربته بهذا الشكل لأجل اختلاسه قبلات. وللمرة الأولى أصمّت نونا أذنيها عن توسلاتك، ثم أبلغت والديك بالأمر وهذا ما ترك جرحاً استغرق شفاؤه سنوات. ولكن ها أنت ذي الآن عدت إليها في النهاية، وجعلت عيد ميلادها سعيداً. وأنا، لهذا، شاكر لك. [واقترب منها] لكنك تعلمين أن شعوري نحوك هو أكثر من مجرد الشعور بالشكر، يا روزا.

حوّلت هاريت عينيها عنه وشعرت بالغثيان، وهي تقول بمرارة: «تدهشني حتى رغبتك في لمسي».

أمسك بيدها: «كنت صغيرة جداً يومذاك».

ارتجفت هاريت، ثم تمالكت نفسها: «هل لك أن تقدم لي خدمة، يا ليو؟».

ـ طبعاً!

ـ هل لك أن تدخلني إلى البيت خلسة فلا تراني نونا بهذا الشكل؟

أومأ قائلاً: «نعم، ولكن عليّ أن أحذرك بأن نونا دعتني إلى الغداء».

ـ في هذه الحالة، يجب أن أخبرك أنها قالت لي هذا الصباح بأن أغلى أمنية لديها هي أن ترانا متزوجين قبل أن تموت.

قال بابتسامة ملتوية: «أعلم هذا. وأظن أنها كانت أمنيتها على الدوام. لقد كنت غاوية منذ طفولتك تقريباً، يا روزا. وإذ أعود بتفكيري إلى الماضي، أستغرب عدم استسلامي لغوايتك ذلك الصيف».

تملك هاريت الحزن. أخذت تفكر وهي تتبع ليو إلى الڤيلا، حيث أخذ يلهي سلڤيا عن النظر إلى هاريت حتى دخلت هذه غرفتها وأخذت تسوّي بسرعة من شكل وجهها وشعرها، بينما الاضطراب يتملكها. لقد أدركت الآن سبب عدم رغبة روزا في القدوم إلى هنا. ولا عجب أنها احتفظت بالتفاصيل لنفسها، أيضاً، وإلا لما أفلح شيء في إقناع هاريت بالقدوم إلى هنا. لكنها جاءت، وتعرفت إلى ليو فورتيناري. ولم يبق أمامها سوى هذا النهار لتنهي دورها التنكري وتهرب إلى بلدها.

نزلت هاريت إلى الطابق السفلي فوجدت السنيورا فورتيناري مستغرقة في حديث عميق مع ليو، فلم يلاحظاها إلا حين تنحنحت تعلن عن وجودها.

أشارت السنيورا إليها بالجلوس إلى جانبها. وبشيء من الاضطراب قالت: «تعالي اجلسي هنا يا حبيبتي. يقول ليو إنه لن يتمكن من البقاء لتناول الغداء معنا».

ـ هذا مؤسف!

ونظرت هاريت إلى وجه ليو الغامض، متسائلة عما كانا يتحدثان فيه. ثم سألت الجدة: «كيف حالك الآن يا نونا؟».

فابتسمت الجدة بشجاعة: «أحسن قليلاً. ساعيني على تسببي لك بالخوف يا حبيبتي! إن قلبي يسبب لي السأم البالغ. يبدو عليك أنك كنت تبكين! أنا آسفة لتكديرك!».

قالت هاريت محاولة أن تبتسم: «كانت نوعاً من الصدمة».

ـ إني مضطر الآن للذهاب، يا روزا، وقد أقنعت نونا بأن تدعك تأتين

www.rewity.com

معي للعشاء هذا المساء.

نظرت هاريت إليه بدهشة: «لكنني راحلة في الصباح!...».

قالت الجدة بسرعة: «أعلم هذا. ومع أنني أحب قضاء كل لحظة في صحبتك يا روزا، إنما عليّ أن أنام باكراً بعد مجهود الليلة الماضية. وستعتني بي سلفيا. وهكذا سيجعلك ليو تستمتعين بآخر ليلة لك هنا. آخر ليلة حالياً». [وابتسمت بحب].

نهض ليو بسرعة: «سأحضر لآخذك الساعة الثامنة، يا روزا».

فقالت باستسلام، سواء كانت موافقة أم لا:

ـ وسأكون جاهزة طبعاً.

قالت الجدة: «ودّعي ليو إلى الخارج يا روزا، وأخبري سلفيا بأننا جاهزتان للغداء».

سارت هاريت مع ليو إلى سيارته، وهي تقول: «ليس عليك أن تستضيفني هذه الليلة. سأكون سعيدة جداً في غرفتي مع كتاب بعد أن تنام نونا».

رفع حاجبيه ساخراً: «هذا شيء لا يرضي زهو الرجل، يا روزا! ولكن، إذا كنت تخافين من تناول العشاء وحدك معي. فسأدعو معنا دانتي، ميريلا وزوجها».

نظرت إليه طويلاً من تحت أهدابها، لكنها لم ترد على تعنيفه الساخر. قال وهو يرفع حاجبه: «أتعرفين ماذا يحدث حين تنظرين إلى رجل بهذا الشكل، يا روزا؟».

لم يكن لديها فكرة عن تأثير مثل هذه النظرة، فقالت بعذوبة ساخرة: «لا تخف يا ليو! لا خطر عليك مني».

تأوه وهو يأخذها بين ذراعيه قائلاً: «أنت مخطئة. كل دقيقة نقضيها معاً، يزداد الخطر».

ضمّها بشدة ثم أسرع إلى سيارته بطريقة هي أقرب إلى طباع دانتي منها إلى شخصية ليو المحافظة.

***

٦ ـ في عرينه...

أخذت هاريت تتابع ببصرها سيارة ليو «المازيراتي» الزرقاء إلى أن غابت عن النظر، فاستقرت خفقات قلبها، ودخلت إلى المنزل لتنضم إلى السنيورا فورتيناري في غرفة الطعام.

قالت السنيورا وهي تلحظ احمرار وجه روزا:

ـ ستستمتعين بالسهرة أكثر بكثير مع ليو، يا روزا، ويسعدني جداً أن أرى الصداقة تنعقد بينكما مرة أخرى.

بالغت الجدة في تبسيط الأمور. والواقع أن وقوع هاريت في غرام رجل لم تعرفه إلا منذ يومين يعتبر حماقة. بهذا فكرت هاريت بقنوط.

وعندما جاء ليو ليأخذها ذلك المساء، ودّعت هاريت جدة روزا بقبلة المساء، وقد تملكها شعور هو مزيج من الإثارة والخوف معاً. حتى الآن لم تمض مع ليو وحدها سوى فترات محدودة من الوقت. لكن انفرادهما هذه الليلة يتطلب منها الحذر البالغ كي تتمكن من الاستمرار في تقمّص شخصية روزا حتى اللحظة الأخيرة.

قال ليو وهو يخرج بالسيارة من الطريق الفرعي إلى الطريق العام: «إنك هادئة كثيراً. هل أنت قلقة على صحة نونا؟».

أجابت بصدق: «نعم! كم تبلغ خطورة حالتها؟».

ألقى عليها نظرة جانبية: «ليس لطبيبها موقف واضح. يقول إنها، مع العناية، قد تعيش سنوات. ومنذ الآن الحفلات ممنوعة، ويجب أيضاً تجنيبها التوتر والضغوط النفسية والعصبية بأي ثمن».

www.rewity.com

كالمشاحنات التي تسببها الحفيدات المزعجات، كما أخذت هاربيت تفكر وقد فهمت تماماً ما يعنيه.

قالت بهدوء: «هذا مؤسف! لقد استمتعت نونا بحفلتها كثيراً!».

- ذلك لوجودك فيها، طبعاً!

- شكراً! كنت مسرورة فعلاً.

وهذا لم يكن صحيحاً. ولكن هاربيت كانت مسرورة حقاً لأن حفلة السنيورا فورتيناري كانت ناجحة لم يفسدها شيء. وتابعت تقول: «بإمكانك التكهن بسبب عدم ابتهاجي وإشراقي».

مد يده لامساً يدها: «أتعنين محاضرتي القاسية في الحديقة؟ إذا سببت لك الألم، فأنا آسف، يا روزا! ولكن عندما وجدتك هناك، وفي ذلك المكان بالذات، رأيت من الأفضل أن أنفض عني أشباح الماضي».

- أنا واثقة من أنك على صواب. إلى أين تأخذني؟

سألته ذلك مستغربة تجاوزهما القرية، إذ كانت الجدة أخبرتها أن فيها مكاناً اعتاد ليو تناول الطعام فيه.

قال ببساطة: «فكرت في أنك قد تحبين رؤية منزلي، فهو يختلف تماماً عن منزل الأسرة في «فورتينو». رغم أنك نادراً ما كنت تذهبين إلى هناك، لسبب ما».

ذلك لأن روزا، كما يبدو، كانت تشعر بالرهبة من ماريا فورتيناري، والدة ليو. ولم تكن ترتاح إلى منزلهم القديم الضخم المشرف على الكروم. فهو بالغ الضخامة بالنسبة إلى زائرة صبية. كانت روزا تقيم على الدوام في «ڤيلا كاستيغليون» الأقل فخامة.

أجابت هاربيت متحدثة بلسان روزا:

- كنت أخاف من أمك؛ فهي لم تحبني، مع الأسف. رغم أن أباك كان لطيفاً معي على الدوام.

- كما كان جميع الرجال من حولك.

- ما عداك أنت!

- أنا تغيرت، وكذلك أنت يا روزا.

ولأنها أرادت منه أن يكف عن الاسترسال في كلامه، هتفت بسرور عندما لاحت من بعيد كروم فورتينو... فتحت ضوء القمر الفضي، جذب نظرها برج عال ومنزل ضخم أشبه بالقصور، وهو الذي كان يبعث الرهبة في نفس روزا. ورأت هاربيت خلفه مجموعة من المباني هي مصانع فورتيناري الشهيرة.

- لقد نسيت مبلغ جمالها!

قالت ذلك ثم رفعت بصرها إلى ليو بدهشة وهو يجتاز مجموعة المباني التي تتوّج المنحدرات اللانهائية المزروعة بالكروم.

- أين تقيم إذن، يا ليو؟

- على بعد كيلومتر تقريباً. إنه قريب إلى حد مناسب يمنحني الشعور بأنني أترك عملي خلفي أثناء الليل، أو بعض الليالي على الأقل.

كانت هندسة منزل ليو فورتيناري شبيهة جداً بهندسة ڤيلا الجدة، لكنه، من الداخل، مختلف كلياً.. بدلاً من السقوف المصوّرة والمذهبة، فضّل ليو السقوف الخشبية المكسوة بالكتان الطبيعي، وجدراناً بيضاء عليها بعض الرسوم القليلة، وسجادة واحدة على الأرض الخشبية اللامعة.

أعجبت هاربيت بالمنزل، وعبّرت عن إعجابها بحماسة بالغة، فقال ليو بدهشة:

- أتعنين ذلك حقاً؟ لم يقل هذا أحد غيرك. إنه يبدو، كما تقول أمي، أشبه بقاعة لعرض الفنون.

- يمكنني فهم ما تعنيه. لا بد أنه بارد منعش للغاية في حرارة الصيف. [والتفتت تنظر إليه] إنني أحب البساطة، لكنه يبدو غريباً عن مظهره الخارجي.

- كان أنقاضاً تقريباً عندما اشتريته، وكان بحاجة إلى إصلاحات كثيرة. وأنت أول من أبدى إعجاباً به. معظم النساء كن يقترحن إضافة وسائد ومرايا وأزهاراً.

www.rewity.com منتديات روايتي

ابتسمت هاريت. كانت تعلم أن هذا صحيح.

ـ أنا مسرورة إذن لأنني مستثناة.

قال وهو ينظر في عينيها:

ـ من «معظم النساء»، وأعني بذلك نونا وأمي وميريلا. لقد انتهى تجديد المنزل لتوه، ولم تقع عليه عين امرأة من خارج الأسرة.

ـ لقد شرفتني بذلك، إذن.

وأشاحت بوجهها تنظر إلى لوحة تمثل كروم «فورتينو». وهي صورة قوية التأثير، حيث تنعكس أشعة الشمس على الأبنية الذهبية وعلى صفوف لا تنتهي من دوالي العنب.

ـ لقد أحببت هذه اللوحة! هل رسمتها بنفسك؟

أجاب وهو يقف خلفها: «نعم! أما زلت ترسمين، يا روزا؟ كان دفتر الرسم بصحبتك على الدوام».

فقالت بخشونة خوفاً من إطالة الحديث عن موهبة فنية لا تملكها: «لا! ليس لديّ وقت».

ـ هذا مؤسف! تعالي وتحدثي إليّ في المطبخ أثناء إعدادي الطعام.

نظرت هاريت إليه بذهول ساخر، وهما يدخلان مطبخاً عصرياً يختلف تماماً عن مطبخ جدته، لكأن المطبخين أُقيما على كوكبين مختلفين.

ـ أتعرف الطهي؟

أجاب ضاحكاً: «هل من الصعب تصديق ذلك؟».

فقالت وهي تنظر إلى قميصه الناصع البياض وبنطلونه الكتاني الفاتح اللون: «نعم!».

ملأ ليو مقلاة واسعة بالماء ووضعها على النار لتغلي. ثم أخرج من الثلاجة مقلاة أخرى تحتوي على المرق:

ـ طاهية أمي حضّرت لي هذا المرق صباحاً. ما عليّ سوى أن أسخنه بهدوء، ثم ألقي قطع اللحم في الماء الغالي، وبعد ذلك أضع سلطة مع الخل وزيت الزيتون. وهكذا يصبح الطعام جاهزاً.

قالت ضاحكة: «ذلك إذن ما تعنيه بالطهي!».

فبادلها الضحك: «هل تفضلين شيئاً آخر؟».

ـ لا! لا شيء على الإطلاق.

وكان هذا صحيحاً. لم يكن يهمها ما ستأكله الليلة ما دامت ستشارك ليو فورتيناري الطعام بمفردها. إنها تستحق قبل سفرها، هذه السهرة مكافأة لها على معاناتها من التوتر الدائم أثناء هذه الزيارة.

كان ليو قد أعد المائدة في غرفة الطعام المشرفة على كروم الأسرة المغمورة بضوء القمر.

قال بعد أن أجلس هاريت على كرسي مواجه للنوافذ المقنطرة: «سنتعشى على ضوء الشموع».

شعرت هاريت أكثر من أي وقت مضى بأنها سندريلا. وبينما كانت عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل، جلست مستمتعة بكل لحظة تمضيها برفقة ليو أمام هذه الوجبة البسيطة اللذيذة، وهما يتحدثان في مختلف المواضيع، وباتفاق ضمني يتجنب أي حديث عن الماضي. لأول مرة منذ وصولها إلى هذا البلد، تشعر هاريت بارتياح كامل في صحبته، لكنها، في ما بعد، رفضت ما عرضه من حلوى، وهي تقول بأسف: «شكراً! ما كان لي أن أكوّم كل هذا الخبز الرائع في صحني!».

قال وعيناه تلمعان في ضوء الشموع: «سأتذكر ذلك عندما تأكلين معي هنا في المرة القادمة. متى ستعودين يا روزا؟».

فقالت بحزن: «لا أدري!».

ـ هل كنت ستبقين هنا لو أن أشغالك غير كثيرة؟

جذبت نفساً عميقاً، ثم ابتسمت قليلاً:

ـ آه، نعم يا ليو! ولكن ذلك مستحيل لعدة أسباب.

أومأ برأسه جاداً: «إنني أدرك عبء المسؤولية جيداً. [ثم وقف ماداً يده] عودي معي إلى المطبخ لأعدّ القهوة».

ابتسمت هاريت لاوية شفتيها: «أفضّل أن أستغني عن القهوة أيضاً،

www.rewity.com مسلسلات وروايتي

وإلا فلن أستطيع النوم الليلة».

ابتسم ابتسامة بعثت رجفة في كيانها: «سيكون النوم صعباً عليّ أنا أيضاً».

أمسك يدها بيده وأبقاها كذلك إلى أن أجلسها بجانبه على إحدى أرائكه. التفت إليها قليلاً فأجفلت للنظرة التي رأتها في عينيه. ثم قال بحماسة:

ـ وجودي معك وتناولنا الطعام معاً الليلة كان مصدر بهجة لي. ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي دفعني إلى دعوتك.

جلست هاربيت دون حراك، وعيناها في عينيه. هل هذا هو الأمر، أخيراً؟ أخذ قلبها يخفق تحت ثوب روزا الصوفي الرقيق النسيج، لعل العشاء والحديث المتبادل لم يكونا سوى تمهيد لذلك الأمر الذي كانت تخافه كل دقيقة منذ وصولها إلى هذا البلد.

قالت هامسة: «ماذا غير ذلك، إذن؟».

قال بصوت أجش: «تعلمين رغبتي فيك. إنك الآن مختلفة بعد أن أصبحت امرأة، يا ابنة عمتي الصغيرة، إلى حد يسّرني فيه أن أوافق على طلب جدتي أن أسعدها قبل موتها».

بللت هاربيت شفتيها الجافتين بلسانها عندما تابع ليو قائلاً إن جدته تريد منهما أن يتزوجا.

ـ إنها طاعنة في السن، معتلة الجسم، ويكاد يقتلها الندم للجفاء الذي حدث بينكما طوال تلك السنوات. وهي تلومني لدوري في ذلك. والآن، كما تقول، سنحت لي الفرصة لإصلاح ما فعلت وإعادتك إلى الحظيرة. لهذا، هل توافقين على عقد خطبة بيننا، على الأقل؟ [وبعثت نظرته قشعريرة في كيانها]... من غير المحتمل أن تبقى نونّا بيننا وقتاً طويلاً. إذا كان التفكير في الزواج لا يرضيك، فلن يكون هذا ضرورياً. لكن بإمكانك أن تجعليها سعيدة جداً أثناء حياتها.

وأخذ يديها بين يديه، فأخذت هاربيت تحدق إليهما بتعاسة بالغة.

ـ نسيت... أن هنالك شخصاً آخر في حياتي، يا ليو!

أخذها بين ذراعيه وهمس بغطرسة وهو ينظر في عينيها:

ـ أرفض أن أصدق أن أمره يهمك كثيراً... وإلا لما ارتجفت للمستي. هل يمكنك أن تنكري تجاوبك معي؟

قالت بيأس وهي تحاول التملص منه: «ليس هذا هو الموضوع».

لكنه ضحك بلطف وجذبها إليه: «إذا أردت فادّعي أننا مخطوبان، فقط لإسعاد جدتنا. ويمكنك أن تستمري في عملك في الفندق لفترة، إذا كنت تصرين...».

ـ ألا يفشل ذلك ما نفعل؟

ـ لا. فأنت ستعودين إلى هنا كل أسبوعين أو نحو ذلك. وبالطبع يمكنني الذهاب لرؤيتك كما يفعل أي خطيب فيه دم. [وابتسم لها] هل هذا كثير عليّ؟

ـ لكن نونّا ستتوقع منا أن نتزوج...

ـ هل عرض عليك حبيبك المذكور الزواج؟

ردّت بحدة: «ليس هذا هو الموضوع. لا يمكنك أن تتزوج امرأة لترضي جدتك فحسب».

نظر إليها بلهفة قائلاً: «إنه سيرضيني أنا أيضاً، صدقيني! وسيسرني جداً أن أريك كم سيرضيك أنت».

وضمّها بشدة أوهنت فيها كل قدرة على المقاومة. شعرت بخفقات قلبه متجاوبة مع خفقات قلبها. وفجأة، وقف ليو جاذباً إياها معه. وقبل أن تدرك ما ينويه، حملها وخرج من الغرفة إلى السلم المؤدي إلى الطابق الأعلى.

أخذت تقاومه متلوية بين ذراعيه وهي تلهث: «ليو، لا!».

لكنه ضحك وهو يضمها بشدة ويرتقي السلم بسرعة جعلته يلهث وهو ينهار معها على سرير في غرفة واسعة يغمرها ضوء القمر.

قال لها لاهثاً: «قالت لي جدتي أن أستعمل كل ما لدي من قوة لإقناعك...».

www.rewity.com

ـ لا يمكن أن يكون هذا ما قصدته.

وأخذت تحاول التملص منه، لكنه ثبتها هناك، مسكتاً إياها بعناق أوهن إرادتها في المقاومة. ولكن جزءاً صغيراً في عقلها حذرها من مغبة الأمر وأدركت أن هجوم ليو على حواسها كان مقصوداً. فقد اشتبكت عيناه بعينيها بشكل لا يرحم بينما كان عناقه يبعث الرجفة في أوصالها. وأدركت، بعد فوات الأوان، أن كل حركة قام بها أثناء المساء كان قد خطط لها بعناية. كل هذا كان في سبيل غرضه. وأخيراً، رأت هاربيت عينيه تتألقان بشكل مخيف جعلها تدرك أنه لم يعد يهتم بشرح سبب إحضارها إلى هنا. لقد أشعل عناقه القاسي ويداه الملتحاتان النار في كيانها. والمشكلة أنها لم تعرف في حياتها مثل هذا النوع من الحب ولم تواجه موقفاً بهذه الصعوبة. قاومت بيأس وهي تحاول الإفلات منه: «ليو! لا... إنك لا تدرك... لا أستطيع... عليك ألا...».

ـ بل تستطيعين... وعليّ أن أفعل... هذا ما خُلقنا لأجله.

شهقت هاربيت، وبان الذعر على وجهها. وبحركة عنيفة، لم تعرف كيف واتتها القدرة عليها، دفعته بيديها وقدميها بعيداً، وهي تصرخ كالمجنونة:

ـ لا... لا... لستُ روزا... أنت مخطىء! أنت مخطىء!... أنا هاربيت!

نظر بدهشة، ثم وقف يتأملها بجفاء مستنتجاً أمراً كان يلوح له على نحو مُبْهم: «أنت لستِ روزا!... من أنتِ بحق الله؟!».

***

٧ ـ في القلب دمعة

انتصبت هاربيت واقفة بتوتر شديد، ثم حاولت تمالك نفسها وهي تصلح هندامها. لم تنظر في عينيه، إذ شعرت بأنها ارتكبت حماقة بالغة حين سمحت بتطور الأمور إلى هذا الحد. لأول مرة في حياتها ينهزم عقلها أمام عواطفها. ولكن لا جدوى من تبادل الاتهامات...

قالت بلهجة رسمية: «قبل أن أجيب عن ذلك.. هل لي أن أستعمل حمامك لغسل وجهي؟».

ـ أسرعي إذن.

ثم سار نحو الباب. وقبل أن يخرج التفت إليها وحملق فيها بعجرفة: «أريد الحقيقة بكاملها. انزلي إلى الطابق السفلي عندما تصبحين جاهزة».

فكرت أن ليو في قمة الغضب، وهذا أمر توقعته بعدما خرجت من الحمام، كانت تفكر بمرارة في مبلغ حماقتها. لقد مضت العطلة الأسبوعية بكاملها دون أن يكتشفها أحد، لكنها فقدت عقلها تماماً وكشفت عن حقيقة أمرها في لحظة غضب وضعف.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي وجدت ليو في المطبخ. ألقى عليها نظرة عدائية طويلة، ثم وضع إناء القهوة على المائدة وأشار إليها بالجلوس في مواجهته.

جلست هاربيت بصمت ثم ملأت كوبين ووضعت سكراً ثم ناولته كوبه.

www.rewity.com

قال متجهم الوجه: «تتعلمين بسرعة... أخبريني الآن، أيتها الأميرة المتنكرة. من أنت؟ وما أنت؟ ثم من دفع لك أجراً لكي تخدعي جدتك؟».

قال الجملة الأخيرة بلهجة جعلتها ترتعش.

افتعلت الهدوء والتصميم وهي تقول: «أظنك تعلم الآن».

أخذت تحرك السكر في قهوتها، ثم رفعت عينيها إلى عينيه العنيفتين المتسائلتين.

قال باشمئزاز: «تعنين روزا؟! إذن لم يتغير شيء. فما زالت تحيك المؤامرات».

ـ بل أنت مخطىء. فقد تغيرت روزا. وأرادت من كل قلبها المجيء إلى هنا، لأنها كانت متشوقة للعودة إلى جدتها. لهذا، أرجو ألا تحكم عليها بقسوة.

ـ أحكم عليها بقسوة؟! لو كانت هنا لفعلت أكثر من هذا! [ولوى شفتيه عابساً باشمئزاز] يا له من أمر يدعو للسخرية. كيف يمكننا الجلوس هنا ومناقشة الوضع بهدوء، بينما منذ دقائق فقط كنا معاً في أشد الأوضاع جنوناً!

ـ كان عليّ أن أقاومك كما فعلت.

ضاقت عيناه بحقد بين أهدابه الكثيفة، ولوى شفتيه قائلاً: «ولماذا سمحت لنفسك بالوصول إلى ذاك الموقف أصلاً؟».

نظرت إليه بجمود: «ماذا تعني؟».

ـ هل تستغفلينني؟ إنك لست روزا. ومع ذلك تسمحين لي بمعانقتك... يبدو أن الحياة هنا أعجبتك كثيراً. وربما هي أفضل كثيراً من حياتك. وعلى كل حال، إذا كنت تظنين أن بإمكانك إيقاع ليوناردو فورتيناري في شرك الزواج فأنت مخطئة.

صعقت هاربيت لحظة، ثم نظرت في عينيه بعينين ملتهبتين غضباً:

ـ كنت أتوقع عشاءً في مطعم وليس هنا. حاولت أن أقنعك بعدم أصطحابي إلى منزلك إذا كنت تذكر، لكنك لم تستمع إليّ. ولأنني فتاة عديمة التجربة، لم يكن لديّ فكرة...

وسكتت فجأة وأشاحت بوجهها وهي تتنفس بعمق لتسيطر على أعصابها. سألها:

ـ لم يكن لديك فكرة عن ماذا؟

ـ عن أنني، في النهاية، قد أساق رغماً عني.

ونظرت في عينيه قائلة: «على أي حال، لا تخف!».

أجاب بحدة: «لا أخاف؟».

فابتسمت بلطف: «أعني لا تخف من نواياي. ولا تقلق يا سيد فورتيناري. لن آخذ منك قرشاً واحداً، ولا أريدك أن تتزوجني، الزواج هو آخر ما أريد حتى لو كان ذلك من ليوناردو فورتيناري العظيم نفسه».

سكتت هاربيت مصممة على عدم إيضاح شيء قبل أن يسألها مرة أخرى. وأخيراً، مال إلى الأمام ينظر في عينيها: «أخبريني إذن من أنت. وكيف اشتركت في هذا الأمر مع ابنة عمتي. هل أنت ممثلة؟».

هزت رأسها: «اسمي هو هاربيت فوستر. وكنت، ذات يوم، في نفس المدرسة مع روزا. وأنا الآن معلمة مدرسة».

نظر إليها بجمود: «شبهك لروزا بهذا الشكل يوحي بأنك قريبتها على نحو ما!».

أجابت باستسلام: «لا. إنها محض مصادفة. عندما كنا صغيرتين كنا، أنا وروزا، نكره هذا الشَّبَه».

عاد ليو يستقيم في جلسته ثم أخذ يتأملها طويلاً: «وهو شَبَهٌ غريب، يا آنسة فوستر!».

ابتسمت بتكلف، لمخاطبته إياها بشكل رسمي وهذا ما جعله ينظر إليها غاضباً: «أتجدين هذا الوضع مسلياً؟ أنا لا أجده كذلك!».

أجابت متعمدة: «ليس مسلياً، يا سيد فورتيناري. ولكن بالنسبة لما حدث منذ دقائق، استغربت هذه الرسميات بيننا».

هدأ قليلاً ثم قال بلهجة متصلبة:

ـ عليّ أن أعتذر لك. ما كان لي أن أقتحمك بعواطفي، وأصارحك بأن

www.rewity.com
مسديات روايتي

الشكوك تملكتني منذ لحظة وصولك إلينا. بدوت مثل روزا، ولكن كان هناك اختلاف ضئيل. انجذبت إليك منذ البداية كما لم أنجذب قط نحو ابنة عمتي. لكنني أقنعت نفسي بأن السنوات الماضية هي سبب هذا الاختلاف. حدثت نفسي بأن أختبرك على نحو ما فعلت. فإذا لم تكوني روزا، فمن الطبيعي ألا تسمحي بذلك. وإذا كنت هي فعلاً، فهذا يعني أنك تغيرت بما يكفي للوصول إلى ما تريده تونّا.

قالت باستسلام: «وهو أن تعيشا معاً، فقط لإرضاء السنيورا فورتيناري. ولكنني، على كل حال، لست روزا، أنا آسفة. لم أتصوّر أنك ستحضرني إلى هنا الليلة. كان عليّ أن أطلب العودة إلى الڤيلا لحظة وصولي. لو فعلت هذا لبقيت متنكرة إلى أن أرحل، وبذلك لا يتضرر أحد».

رد عليها بمرارة: «لا بد أنني كنت مجنوناً. ليس لديّ عذر. لكنني شعرت فقط بالسرور لأنني معك. نتحدث ونتعشى معاً. كان بيننا من التعاطف ما جعلني أريدك أن تكوني روزا». [ونظر إليها وكأنه ما زال لا يستطيع التصديق] شعرت بأن مكانك بين ذراعيّ. كنت مندفعاً وراء عواطفي...

حدقت هارييت إليه بصمت وشعرت بكيانها يتوهج.

قال ليو بعد لحظة: «أخبريني بشيء واحد فقط... هل لديك صديق في انكلترا تحبينه؟».

ـ لا! لم يسبق أن شعرت بشيء نحو رجل من قبل.

قالت ذلك بأسف لأنها أصبحت تعلم أن الشيء الوحيد الذي سينغص حياتها هو ليو فورتيناري، الرجل الوحيد في العالم الذي بإمكانه أن يشعل النار في جسدها.

رفع حاجبيه معنفاً: «أتعنين أنك شاذة؟».

أجابت بحدة: «لا! رغم أن خياراتي العاطفية ليست من شأنك».

ابتسم ساخراً: «الحق معك! المعذرة يا روزا!».

ـ بل هارييت!

ـ هارييت. [كرر ذلك وكأن الحقيقة ما زالت صعبة] حان الوقت الآن لتخبريني كيف ولماذا طلبت منك روزا تقمص شخصيتها.

ـ يمكنني أن أخبرك كيف، يا ليو، لكنني لا أستطيع أن أقول لماذا. روزا هي التي ستخبرك بذلك.

ـ ومتى ستفعل ذلك؟

ـ ليس لدي فكرة.

قطب جبينه: «وهل يعلم تونّي بالأمر؟».

ارتجفت هارييت قليلاً: «آه، لا! أنا وروزا وأمي فقط. وأنت الآن».

ـ هل دفعت لك أجراً جيداً.

احمر وجهها:

ـ إلى حد ما. كل ما كانت روزا تريده هو أن آخذ مكانها لمدة يومين فقط. ومن الواضح أنني الوحيدة في العالم المؤهلة لهذا الدور. لقد تعلمت في «سيينا» اللغة الإيطالية عندما كنت تلميذة. في البداية رفضت القيام بهذا الدور، ورفضت بشدة، صدقني أرجوك. لكن روزا التي كانت مولعة بأمي، أخذت تزداد قلقاً على صحتها... وهذا مفهوم لأن حزنها ما زال بالغاً لخسارتها أمها. وأخيراً جعلت روزا من المستحيل عليّ أن أرفض.

سألها ببرودة: «وكيف استطاعت ذلك؟».

ـ بتصميمها على أن تدفع أجرة عملية أمي سواء جئت إلى إيطاليا أم لا.

ـ ولم تسمح لك كرامتك بذلك؟

ـ بالضبط.

ـ لكنك لم تخبريني لماذا لم تستطع روزا القدوم بنفسها.

ـ نعم، مع الأسف. لكنني واثقة من أن روزا ستخبر «تونّا» قريباً، أعني جدتك.

قال وقد خف غضبه بشكل ملحوظ:

ـ أراك وجدت التفكير فيها كجدة أمراً سهلاً. هل تعتبرينها بمثابة جدة لك؟

www.liilas.com مسديات روايتي

ـ لا، أبداً!

ـ أنت إذن إما ممثلة بارعة، وإما أنك أحببت «نونا» من أول نظرة.

فأومأت هاربيت: «كنت متوترة للغاية، ولكن منذ رأيتها شعرت وكأنني أعرفها طوال حياتي. [وخفضت بصرها] في الحقيقة، يا ليو، إنها تعاملني بأمومة أكثر من جدتي الحقيقية».

ـ نونا تحبك جداً.

ـ لكنها تظنني روزا.

قال بعزم: «وسنتركها تظن ذلك. فلا فائدة من تكديرها».

قالت بحزن: «هذا صحيح! أظن لا ضرورة لذلك. لكنني أرجو منك أن تصدق شيئاً واحداً، يا ليو، وهو أنني أكره أن أخدعها».

ـ وهل كرهت أن تخدعيني أنا؟

أجابت وهي تغض بصرها: «طبعاً كرهت ذلك».

حدّق إليها مفكراً: «لقد عرفتك منذ وقت قصير جداً، ومع ذلك أشعر وكأنني عرفتك طوال حياتي.. أظن أنه سيمضي وقت طويل جداً قبل أن أنساك، يا هاربيت فوستر».

قالت وهي تفكر بمرارة في أنها هي لن تستطيع نسيانه:

ـ هل لك أن تعيدني إلى الفيلا الآن، من فضلك؟

نهض ليو واقفاً: «سآخذك إلى المطار غداً، ولكن عليك أن توافيني بأخبارك».

ومع أنها لم تتصور قيامها بذلك، فقد أذعنت هاربيت تفادياً للمناقشة، فأخرج ليو من محفظته بطاقة:

ـ تجدين هنا رقمين لي. يمكنك الاتصال بي في أي وقت أثناء العمل. أخبريني يا هاربيت هل حاول أي رجل إقامة علاقة معك قبل الآن؟

هزت كتفيها: «لقد حاول بعضهم. لكنني لم أشعر قط بأي تجاوب. كان افتقاري إلى الحماسة دوماً ينهي علاقاتي».

ـ كم عمرك، يا هاربيت؟

ـ ستة وعشرون.

ـ ومع ذلك لم تقيمي علاقة عاطفية قط؟ [وتملكتها الدهشة عندما أمسك يدها يقبلها] ساحبني يا هاربيت!

قالت بإنصاف وهي تسحب يدها: «إن جزءاً من اللوم يقع عليّ. كان عليّ عدم مرافقتك إلى المنزل».

ـ أنا محظوظ لقدرتك على مناقشة الأمور بتعقّل. إن لك وجه روزا، لكنك متفردة بشخصيتك، هاربيت فوستر. [وابتسم هازئاً] لا عجب أن وجدت روزا متغيرة بهذا الشكل!

ـ كنت تظن أنك تتعاطف مع روزا!

هز ليو رأسه:

ـ كنت أتعاطف مع المرأة التي اعتقدت أنها روزا كما أصبحت. وبكلمة أخرى، معك، يا هاربيت. [واشتبكت عيناه بعينيها]: إن لدي شعوراً قوياً بأنني سأمضي ليالي كثيرة نادماً على إساءتي إليك.

***

www.rewity.com
سيديات روايتي

٨ ـ وعدٌ باللّقـاء

أمضت هاربيت ليلتها مؤرّقة مضطربة. وكان عزاؤها الوحيد أنها سترحل في الصباح الباكر. كان وداعها للسنيورا فورتيناري مؤلماً. لكن رحلتها إلى المطار مع ليو كانت أصعب احتمالاً.

سألها وهما في طريقهما إلى مطار بيزا: «كيف حالك هذا الصباح؟».

ـ متعبة.

ـ ألم تنامي جيداً؟

ـ لا!

ـ وكذلك أنا.

ساد الصمت فترة أخبرته هاربيت بعدها بفظاظة عن الشعور الذي خالجها وهي تودع جدّته:

ـ أوشكت أن أقول الحقيقة.

قال بعنف: «من حسن الحظ أنك لم تفعلي. أمامها وقت كافٍ لمعرفة كل شيء... لقد ساورتني الرغبة في أن أسافر معك لأواجه روزا بنفسي».

ـ لا! دعها تقوم بكل شيء حسب رأيها، أرجوك يا ليو!

ألقى على وجهها الشاحب المنهك نظرة متأملة: «لا بأس!».

ولم يتكلما بعد ذلك إلا قليلاً حتى وصلا إلى المطار.

قالت له ضارعة: «أرجو منك ألا تنتظر، يا ليو!».

لكن ليو أجاب بعناد: «سأنتظر حتى تغادر الطائرة».

جلسا معاً لفترة قصيرة بصمت متوتر غير مريح، غافلين عن الجموع التي

تتحرك حولهما، ولكن أخيراً أعلن صوت عن قيام الرحلة.

ـ اتصلي بي حال وصولك!

ـ سأتصل بنونّا... أعني...

ـ أعرف! إنما اتصلي بي بعد ذلك. سأكون في الانتظار.

خفضت بصرها أمام نظراته، محدقة في يديها المتشابكتين، حامدة الله على قرب رحيلها. كان جلوسها بقرب ليو بهذا الشكل يملؤها بمزيج من السرور والعذاب، لعلمها أن هذه هي دقائقهما الأخيرة التي يمضيانها معاً. قال بشكل مفاجىء جعلها تجفل:

ـ كان وعدك لي الليلة الماضية أن توافيني بأخبارك. ولكن وعدك كان ضعيفاً بحيث خطر لي أنك لا تنوين ذلك. أريد منك هذا!

عندما ارتفع صوت المعلن عن قيام الرحلة للمرة الثانية، وقفت هاربيت شاحبة الوجه ونظر ليو إليها:

ـ وداعاً، يا هاربيت فوستر!

ـ وداعاً!

وأخذت تغالب دموعها بشدة، ولكنه سارع بأخذها بين ذراعيه ويضمّها طويلاً برقة بالغة كأنه يريد منها أن تبقى مشدودة إليه طوال الرحلة.

وقد نجح ليوناردو فورتيناري في هذا. فقد جلست على مقعدها بجانب النافذة، وهي تشعر بالدوار، غافلة عن الرجل الذي جلس بجانبها... وعندما فكت حزام مقعدها من حولها، طلبت كوباً من الشاي بدل وجبة الطعام التي قُدمت إليها. والواقع أن معظم وقت الرحلة مرّ بشكل ضبابي، لأن هاربيت استعادت كل لحظة أمضتها بين ذراعي ليو.

قال الرجل الذي يجلس إلى جانبها في الطائرة:

ـ هل أنت بخير؟ هل أنت خائفة من الطيران؟

نظرت إليه بوجه جامد، ثم رسمت ابتسامة متكلفة:

ـ لا، أبداً! شكراً لك!

المسألة أنها خلفت قلبها في توسكاني مع شخص لا يريده. وعدا هذا،

www.rewity.com منتديات

هي في أتم خير.

وفي مطار لندن، عندما وقفت تنتظر الحافلة التي ستقلها إلى بلدتها «بينينغتون»، اتصلت بأمها تخبرها بوصولها، لكنها ذهلت عندما أجابتها روزا لاهثة:

ـ هاربيت، الحمد لله. لقد اضطرت والدتك للإسراع إلى المستشفى.

سألتها هاربيت بذعر: «ماذا؟ لماذا؟ هل ساءت حالتها فجأة؟».

ـ لا! المريضة هي جدتك. جئت لزيارة أمك هذا الصباح، فوصلت في الوقت المناسب لاستدعاء الإسعاف. تبعتهما إلى المستشفى لأقدم أية مساعدة ممكنة، لكن والدتك طلبت مني العودة إلى البيت لانتظارك. لديّ كثير من الأخبار. كيف سارت الأمور معك؟ هل أنت بخير؟

ـ نعم. بخير. يجب أن أسرع يا روزا! وصل الباص!

ـ سأنتظرك في محطة الباص.

منذ سنوات وجدّتها تدخل المستشفى وتخرج منه. وعندما انطلقت الحافلة، داهم هاربيت إحساسها المعتاد بالذنب، لأن قلقها على أمها كان أكثر منه على جدتها المقعدة. لكن ما كان يستحوذ على ذهنها أكثر من أي شيء آخر هو فراقها ليو. حدثت نفسها بأنه من الغباء أن تشعر بهذا الشكل نحو رجل لم تعرفه إلا منذ أربعة أيام، ومع ذلك فإن الحياة بدت من دونه كئيبة. شدّت على أسنانها. لو كانت فتاة عابثة، تتنقل من رجل إلى آخر، لما وقعت في الغرام بهذا الشكل العنيف..

ترى، هل سيعتبرها ليو فورتيناري انتهازية تريد الإفادة من تعرفه إليها؟

عندما وقفت الحافلة ورأت روزا تلوح لها من بعيد بفرح، ابتسمت هاربيت لأول مرة منذ ساعات. كانت ترتدي سروالاً متقن التفصيل وسترة صوفية، كان حمل روزا ما يزال غير واضح. لكن شيئاً في وجهها كان مختلفاً.. شيئاً بان لهاربيت حتى قبل أن تنزل من الحافلة. فقد تألق في العينين الكبيرتين السوداوين أشعة جديدة وأخذت تعانقها وتقبلها كأنها لم تشاهدها منذ شهور. ولأنها لم تتعود بعد على روزا العاطفية، فقد فوجئت هاربيت في

البداية، إلى أن أدركت أن روزا بصحبة شخص ما.

رجل نحيف أشقر يضع نظارات داكناء أخذ يحدّق في هاربيت بحيرة وهو يحمل حقيبتها.

ـ هذا باسكال!

قالت روزا ذلك بابتهاج وهي تحاول حمل حقيبة هاربيت الصغيرة، ولكن باسكال سبقها إليها وزجرها بعنف: «لا يا عزيزتي. إنها ثقيلة...».

ـ أظنك السيد تافيرنير.

قالت هاربيت ذلك بابتسامة مرحة ردها لها بلطف، وراحت عيناه تنظران إليها من خلف النظارتين:

ـ مرحباً! لا يمكنك أن تكوني سوى الآنسة فوستر! لقد حدثتني روزا عن الشبه الغريب بينكما، لكنني لم أصدقها... إنه شيء غير عادي. هل يمكنني مناداتك بهاربيت؟

ـ يمكنك طبعاً. وأنا مسرورة جداً للتعرف إليك!

قالت هاربيت ذلك وهي تنتهد بقوة، ثم عادت تعانق روزا، مسرورة لأن واحدة منهما، على الأقل، وجدت أخيراً المستقبل الوردي.

جلس باسكال إلى مقعد القيادة في سيارته الـ«ألفاروميو» أما روزا، فجلست في المقعد الخلفي مع هاربيت، وهي تعدها بأن تحدثها في ما بعد عن الحادث الذي كان عطّل باسكال عن العمل. يبدو أن هذه العطلة الأسبوعية كانت مليئة بالأحداث.. لقد أنجبت زوجة أخيها أليغرا موستين طفلاً في الساعات الأولى من صباح السبت. وعند المساء وصلت روزا أخباراً من باسكال. سألتها، وهي تغلي من الإثارة والفرح، عن أخبار جدتها وكل ما حدث. فأخبرتها هاربيت عن السنيورا فورتيناري والخطة، وعن نجاحها في اجتياز العطلة الأسبوعية دون حادث مؤسف. ثم طلبت منهما إنزالها عند المستشفى.

ـ ربما ليس لديك مانع في إيصال أمتعتي إلى بيتنا في طريقك. وسأسلمك أشياءك في وقت آخر.

www.rasity.com

ـ طبعاً، لن نذهب إلى مكان محدَّد الآن، وسأنتظرك في بيتك إلى حين عودتك، إذا كان هذا يناسبك. أريد منك مزيداً من التفاصيل عن رحلتك.

ـ ولكنني قد أتأخر.

بدت على وجه روزا ابتسامة مشرقة:

ـ لا بأس، سنجد في بيتك فرصة تخولنا الانفراد وهذا ما لن يحدث في فندق الهرميتاج.

وعندما وصلوا إلى المستشفى، وضعت روزا يدها على يد هاريت:

ـ دقيقة واحدة. لم تذكري شيئاً عن ليو، كيف كان أمرك معه؟

منحتها هاريت ابتسامة سريعة: «أفضل مما توقعنا... لكنني سأخبرك بذلك في ما بعد. سأبقي معي تليفونك لأتصل بفورتينو، إذا لم يكن لديك مانع».

ـ لا بالتأكيد! ولكن عندما تعودين إلى البيت أريد كل التفاصيل.

قالت روزا ذلك ثم انتقلت إلى المقعد الأمامي بجانب باسكال.

ـ سنتسوّق في طريق عودتنا ونحضر بعض الأشياء لعشاء الاحتفال.

قال باسكال هازلاً: «العشاء الذي سأعدّه بنفسي، أرجو أن تجدي جدتك بخير يا هاريت».

فأومأت روزا بسرعة: «وأنا أيضاً، تحياتي لأمك».

أخذت هاريت تلوّح لهما بيدها، ثم اتصلت بثيلا «كاستيغليون» وعندما سمعت صوت السنيورا فورتيناري المتلهف شعرت بغصة.

ـ ما أشد سروري لسماع صوتك، يا طفلتي! ويمكنني أن أستريح الآن.

توقفت هنيهة ثم أضافت بمرح.

ـ هل أوصل خبراً منك إلى ليو؟

قالت هاريت على الفور، وهي تعلم أن السنيورا ستفهم كما يجب: «طلب مني الاتصال به بعد الاتصال بك».

بعد ذلك اتصلت بليو الذي أجاب على الفور:

ـ هاريت! هل أنت في بيتك؟

ـ لا! في المستشفى...

ـ المستشفى؟ لماذا؟ هل أنت مريضة؟

ـ لا، ليس أنا بل جدّتي.

ـ آه، أنا آسف جداً! ماذا حدث لها؟

ـ لا أدري. لم أرها بعد. قد وصلت للتو وقد اتصلت بنونا أولاً، وعليّ أن أذهب الآن.

فقال بسرعة: «لا، يا هاريت، انتظري. نسيت أن تعطيني رقم تليفونك».

ـ أنا لم أنس، بل تعمدت ذلك.

ـ ولكن يجب أن أعرف...

ـ لا يا ليو. سأتصل أنا بك.

وكانت تعلم أنها لن تفعل.

ـ أريد أن أتحدث إليك أنا أيضاً. أن أطمئن إلى أنك بخير. [ثم سكت لحظة] لقد هدأ غضبي الآن.. وأريد أن أشكرك لأنك بعثت السعادة في قلب جدتي.

ـ اسمع ليو.. أريد منك فقط أن تنساني، روزا واحدة في كل مرة تكفي أية أسرة.

قال بعنف: «لا أريد روزا! فليساعدني الله! بل أريدك أنت».

أقفلت هاريت التليفون وهي تبتلع ريقها بصعوبة. ثم جففت عينيها الدامعتين، وأسرعت إلى مكتب الاستعلامات، وأخبراً وجدت أمها جالسة على كرسي في غرفة الانتظار. قفزت واقفة وقد تألقت عيناها المتورمتان لمرأى ابنتها.

اندفعت هاريت تعانق أمها الطويلة القامة: «كيف حال جدتي؟».

ـ آه يا عزيزتي. ما أشد سروري لرؤيتك! لقد ماتت أمي منذ وقت قصير.

وشهقت الأم ودفنت رأسها الذي خطه الشيب في كتف ابنتها.

www.rewity.com

ـ لقد شكت من ألم في الصدر هذا الصباح، فأدخلناها المستشفى. ومنذ نصف ساعة أصيبت بنوبة قلبية ولم يستطيعوا إنقاذها.

ـ أوه، يا أمي! [واحتضنت أمها نادمة] أنا آسفة جداً! كان يجب أن أكون هنا.

ـ كانت روزا عوناً كبيراً لنا، هل تعرفت إلى باسكال؟ لقد قدما بسيارة الإسعاف إلى هنا، لكنني أعدتهما إلى البيت لكي ينتظرا اتصالاً منك.

وارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة وهي تمسح عينيها.

كان الوقت عصراً عندما أخذت هارييت أمها أخيراً إلى البيت حيث استقبلت بمودة وتعاطف من روزا وباسكال. بعد ذلك، أمضى الأربعة مساءً غريباً شاع في جوه خليط من الأسى والبهجة والفضول والاحتفال. أثناء العشاء، أخذت هارييت تصف العطلة الأسبوعية وكيف بقيت تسير على حبل مشدود بنجاح: وصفت سرور السنيورا فورتيناري بالحفلة، وضحكت من حادثة سكب العصير على ثوبها. لكنها حاذرت من الحديث عن ليو بكثرة. بعد العشاء، عندما رأت أمها متعبة ألحت هارييت عليها أن تأوي إلى الفراش.

ـ سآتي إليك في ما بعد لأرى إن كنت بحاجة إلى شيء. لكنني لن أدع باسكال يخرج من البيت قبل أن أسمع كل مغامراته في الصحراء.

وكان باسكال متلهفاً إلى القول بأن الصدفة، وليس الخيار، هي التي أبعدته عن روزا. كان متعباً من حرارة الجوّ بعد تغطية مؤتمر بين سياسيين فرنسيين وبعض القادة العرب في قطر، فذهب إلى الشاطىء للسباحة، ثم نام فترة طويلة استيقظ بعدها ليجد الظلام قد حلّ.

انطلق على الفور إلى الدوحة، لكنه ضلّ طريقه في الظلام ثم وجد سيارته تغرق في الرمال الناعمة فلم يستطع تحريكها، وكان تليفونه فارغاً من الطاقة. وهكذا، لم يكن أمامه سوى الانتظار إلى الصباح. وعندما طلعت الشمس، دفعه العطش إلى السير على أقدامه طلباً للنجدة. ولكنه لم يعد يتذكر شيئاً حتى استيقظ في غرفة غريبة، فعلم أن مضيفه العربي العجوز قد وجده مغمياً عليه

على جانب الطريق فأخذه إلى بيته في قرية ذات بيوت مربعة تحيط بمئذنة.

هتفت هارييت: «يا الله! كنت محظوظاً!».

ـ أعلم هذا. [قال باسكال ذلك وهو يقرّب إليه روزا التي كانت ترتجف] في البداية لم أتذكر شيئاً، لكن ذاكرتي أخذت تعود إليّ شيئاً فشيئاً. وكما قلت يا هارييت، كنت محظوظاً.

قالت روزا بجد:

ـ وكذلك أنا! [ثم ابتسمت لهارييت] لا بد أنك تتساءلين عما سيحدث بعد ذلك. سأكتب أولاً رسالة مطولة لنونا أخبرها فيها عنك، وعن باسكال، وعن كل شيء. ولكي أخفف من الصدمة، سأضع مع الرسالة بطاقة دعوة إلى حفلة زواجي.

وتبادلت نظرة رقيقة مع باسكال، ثم أضافت:

ـ سنقيم حفلة بعد أسبوعين، يا هارييت، وها نحن من الآن ندعوكما أنت ووالدتك إلى الحفلة.

ـ ما أروع هذا! تهانيّ!

شكرها باسكال بلباقة، لكن روزا ابتسمت لها بخبث:

ـ أحذرك من أنني سأدعو ليو، أيضاً.

تبددت ابتسامة هارييت، وقالت: «في تلك الحالة هناك شيء عليك أن تعرفيه».

ونظرت إليها مستفهمة. فأومأت روزا قائلة:

ـ تكلمي بحرية يا هارييت. إن باسكال يعلم كل شيء.

ثم قالت هارييت وقد احمر وجهها: «أنا آسفة، لقد أخطأت في شيء ما فكان أن عرف ليو حقيقتي في آخر لحظة... أنا آسفة جداً يا روزا!».

ولأن باسكال عاد إليها، لم تهتم روزا بهذا مثقال ذرة:

ـ كنت أعلم أنك سترفضين الذهاب لو أخبرتك بكل شيء. ليو كان دائماً هو المشكلة الرئيسية. لا يعني هذا أن الأمر مهم الآن، لأنني سأقدم اعترافاً كاملاً في رسالتي إلى نونا. لكنني لم أعرف قط أن أخت غيدو فسخت

www.rewity.com

خطبتها بسبب إقدام ليو على ضرب أخيه، وأقسم على هذا، هل كان ليو فظاً معك؟

ـ ليس تماماً.. كان دهشاً فقط!

وكانت هذه طريقة مضحكة في وصف ردة فعل ليو حين اكتشف أنه مع فتاة أخرى كان يظنها روزا.

***

قبل جنازة جدة هاريت، أخذت هاريت إجازة من عملها، بسبب موت جدتها وكانت روزا قد أمضت كل دقيقة تمكنت من توفيرها في منزل أسرة هاريت، للمساعدة في ترتيبات الجنازة بكفاءة اكتسبتها من إشرافها على فندق هرميتاج.

سألتها هاريت ذات مساء وهما تتناولان العشاء: «ماذا سيحدث للفندق حين تتزوجين بياسكال؟».

ـ سيُحضر توني مديراً جديداً. لقد انتهت أيامي في الفندق. على كل حال، سيحصل باسكال على ترقية. وبدلاً من أسفاره حول العالم، سيستقر في باريس من الآن فصاعداً، وهذا يعني أنني سأعيش هناك بطبيعة الحال. [واتخذ وجهها شكلاً رصيناً] لن أدعه بعد الآن يغيب عن نظري.

قالت الأم بدعابة وهي تنهض عن المائدة:

ـ لا تخنقيه يا عزيزتي! دعيه يتنفس!... آسفة لأن وجودي عديم الجدوى، فمن الأفضل أن أذهب إلى فراشي. لا تذهبي يا روزا، ابقي هنا وتحدثي إلى هاريت بعض الوقت.

تلقت روزا هذا الطلب المحبّ بسرور. وعندما تركتهما الأم، قالت لهاريت بسرعة:

ـ لن أستطيع أن أخبرك أمام أمك، لأنني لا أعرف بالضبط مقدار معلوماتها. لكن ليو اتصل بي تليفونياً إلى الفندق، اليوم، سائلاً عن رقم تليفونك. لم يسأل عن أحد، إنما قال باختصار: «أعطيني رقم تليفون

هاريت!».

حدّقت هاريت فيها بذعر: «وهل أعطيته؟».

أجابت روزا عابسة: «أبداً! فما زال هو هو لم يتغيّر، مستبداً كالعادة. لقد ثارت ثائرة ابن خالي ليو حين قلت له إنّ عليّ أن أسألك أولاً. [ثم ابتسمت روزا] ولكن عندما اتصلت بي «نونا» كان الحديث مختلفاً جداً. كانت، بعكس ليو، تنضح حباً وغفراناً، وتسألني عنك».

قالت هاريت وهي تتنهد: «أحمد الله لأن الخبر لم يؤذها».

ـ عندما تنتهي الجنازة سأتحدث إليها عن كل ذلك، بقدر ما تحب طبعاً. الحمد لله أن الطبيب سيراها الأسبوع القادم، يا هاريت.

ـ شكراً لترتيب أمر هذا الموعد بسرعة، يا روزا.

احمر وجه روزا: «لا تشكريني. أنا التي أدين لك بالكثير. أشعر بالذنب لأن كل شيء على ما يرام في حياتي، بينما لديك كل هذه المتاعب. في الواقع، يا هاريت، تبدين بحالة فظيعة. هل أنت بخير؟».

ـ بكل خير! متعبة فقط؛ هذا كل شيء!

لم يبد على روزا الاقتناع.

ـ قولي إذن، هل أعطي ليو رقمك؟

هزت هاريت رأسها: «لا أظن ذلك».

في المساء التالي كانت روزا مرتبطة بحفلة عشاء كبرى في هرميتاج. ولأول مرة منذ عودتها إلى بيتها، تناولت هاريت العشاء وحدها مع أمها.

قالت هاريت بعد انتهاء العشاء: «أثناء رؤيتك هذه التمثيلية على شاشة التلفزيون، أحب أن أتحدث إلى كيتي».

ابتسمت الأم: «هذا جميل. بلغيها تحياتي واطلبي منها أن تكون هنا صباح الغد».

ـ سأفعل ذلك.

وصعدت هاريت إلى غرفتها واتصلت بأختها. بعد ذلك، شعرت بالذنب والتوتر، فاتصلت بمنزل ليو فورتيناري. فأجاب الصوت المألوف،

www.elibrary.com
مكتبات وموسوعات

الذي وصلت ذبذباته عبر الأميال لتحدث في كيان هاربيت رجفة وصلت إلى أصابع قدميها.

ـ أنا هاربيت، يا ليو. [قالت ذلك بالانكليزية].

ـ هاربيت! أخيراً!

إنه يتكلم الانكليزية إذاً! أحست بشيء من الراحة، وتابعت تقول: «أخبرتني روزا أنك اتصلت بها».

قال بغضب: «لقد رفضت إعطائي رقم تليفونك. أريد منك أن تعطيني إياه حالاً، يا هاربيت».

ـ لكنك لست بحاجة إليه.

فقال غير مصدق: «لست بحاجة إليه؟ بل أنا بحاجة إليه!».

قالت بسرعة: «ولماذا تريد ذلك؟ أنا بخير ولا أعاني من أية مشكلة».

قال بعتاب خشن: «وهل تتطلب مكالمتك وجود مشكلة؟».

ـ أقصد أنني كنت منهمكة بسبب جدتي ووالدتي.

ـ على أي حال، هل أنت مسرورة الآن؟

ـ طبعاً مسرورة، وفي غاية البهجة، كيف حال جدتك؟

ـ ترسل إليك تحياتها حارة. كما طلبت مني أن أقدم لك تعازيها. عفواً، يا هاربيت، كان يجب أن أعزّيك على الفور.

ـ شكراً لك.

ـ كيف حال أمك؟

ـ متعبة جداً.

ـ وكيف حالك أنت، هاربيت؟

سألها ذلك بمودة ولهفة ظاهرة. بدا صوته مختلفاً بالانكليزية. لأنه أعمق وأشدُّ بحّة، وفيه لكنة جعلتها تذوب.

ـ أنا بأحسن حال، شكراً.

لم تقل له إنها تعيسة متألمة الفؤاد بل قالت: «كيف حالك أنت؟».

ـ أفضل بكثير، لأنني تحدثت معك أخيراً. ونونا ستكتب إليك.

ـ هل تكدرت كثيراً؟ أرجو ألا تكون أخبار روزا قد سببت لها نوبة.

ـ أدهشني أن هذا لم يحدث. لقد ذهلت نونا في البداية، وعندما مرت الصدمة التي تملكتها عند قراءة رسالة روزا، أصبحت شديدة الفضول بشأنكِ هاربيت.

ـ لأجل التشابه الذي بيننا، أنا وروزا؟

ـ ليس هذا فقط. [وانتقل فجأة إلى الحديث بلغته] عفواً، لكن لغتي الانكليزية ليست بجودة لغتك الايطالية، هاربيت. أريد منك أن تعلمي أن نونا أحبتك كثيراً، لذا ذهلت حين علمت أنك لست حفيدتها.

قالت بصوت متردد: «هذا لطف كبير منها. يجب أن أذهب».

ـ ليس الآن. ليس قبل أن تعطيني رقم تليفونك.

ولكن هاربيت سمعت صوت أمها تصعد السلم، فوضعت السماعة، مصممة على إبقاء اتصالها بليو سراً عن أمها، وعن روزا.

بعد ذلك، تنقّلت هاربيت في الطابق الأرضي من البيت لتطمئن إلى أن كل شيء منظم لليوم التالي. لم يكن لجدتها أقرباء أحياء من سنها. ولن يكون في الجنازة سوى عدد قليل من أصدقاء أمها ومن الجيران. أما روزا، رغم اعتراض هاربيت وأمها، فقد أصرت على التكفل بالمرطبات من مطابخ فندق تشسترتن.

كانت هاربيت تقفل الأبواب قبل النوم عندما رن تليفون المطبخ. أسرعت إليه قبل أن يوقظ أمها، وإذا بها تتكىء إلى الجدار وقلبها يخفق لأنها سمعت صوت ليو يتكلم الانكليزية.

ـ هاربيت؟ أرجو ألا أكون أفزعتك؟

كان صوته مزيجاً غريباً من التكلُّف والسرعة.

ـ هل تسمعينني؟

ـ نعم، نعم! أسمعك. كيف حصلت على رقمي؟

ـ خطر في بالي أنه في حوزة نونا لأنها تراسلك وهكذا ذهبت إلى الثيلا وطلبته منها.

www.rewity.com منتديات روايتي

ـ لماذا لم تتصل تليفونياً بجدتك؟

ـ كان تقديري أنني لن أحصل على الرقم من دون إقناعها مباشرة. وأنا لا أتصل بها تليفونياً في وقت متأخر من الليل لئلا أقلقها.

ـ ألم تهتم بأنني قد أقلق أنا؟

ـ ليس لديّ خيار. [وسكت لحظة] لم تسأليني عن سبب اتصالي بك. ألم يتملكك الفضول؟

وكان الفضول يتملكها طبعاً. فقالت بهدوء: «أظنك ستخبرني».

ـ أردتك أن تعلمي أن أخبارك قد أصابتني بخيبة أمل.

التمعت عينا هاريت: «هل هذه هي الكلمة المناسبة بالانكليزية لما تعنيه بالضبط؟».

ـ نعم!

فابتلعت ريقها: «ومِمَّ خيبة الأمل هذه؟».

فقال بتأنٍّ وصبر، كأنه يتكلم إلى صبي صغير:

ـ هاريت! إذا فكرت في الأمر جيداً، ربما أدركت الجواب من تلقاء ذاتك!

وتملكها الغيظ عندما أذاقها ليو دواءها نفسه؛ إذ وضع السماعة دون أن يلقي تحية الوداع حتى.

***

أمضت هاريت الصباح الطويل الممل قبل الجنازة، بإعداد مائدة العشاء، وبتنسيق الأزهار والنباتات الخريفية، وبتنظيم المرطبات التي وصلت من فندق تشسترتون في الصباح الباكر. وعندما أنهت كل هذه الواجبات، أخذت تطوي فوط المائدة بشكل أزهار الزنبق.

نزلت أمها كلير لتلقي نظرة على الأمور.. بدت شاحبة مرهقة وكانت ترتدي «طقماً» رمادياً:

ـ لست مضطرة إلى كل هذا العمل، يا حبيبتي!

هزت هاريت رأسها: «لا إزعاج في هذا.. أنا بحاجة إلى إلهاء نفسي. لقد أعددت غداءً خفيفاً في المطبخ لأجل توم وكيتي، ولم يكن لديَّ شيء آخر أقوم به».

ـ ما كان لك أن تستيقظي باكراً هكذا!

ـ لم أستطع النوم! وهذه هي حالك أنت، على ما أظنّ. هل تشعرين بالتعب، يا أمي؟

أجابت الأم بابتسامة مشرقة: «عندما أرى الطبيب سأصبح بأحسن حال».

وعندما وصلت أختها وزوجها، تحسن الجوّ المنزلي على الفور. كانت كيتي شقراء طويلة القامة، وقد ظهر الحمل عليها. احتضنت أمها وأختها، ثم أفسحت المجال لزوجها الذي أبدى العطف نفسه. من ثم مضى الوقت بسرعة، فسارعت هاريت إلى ارتداء ثيابها قبيل قُدّاس الجنازة.

بعد قداس سريع، اتجهت الأسرة إلى الحديقة الغارقة في أشعة الشمس لتشكر الأصدقاء الذين قدموا للتعزية. صافحت هاريت الأيدي، وقبلت الوجنات، وردّت بكل الكلمات المناسبة المتعارف عليها. وأخيراً وجدت نفسها بين ذراعي روزا التي احتضنتها وقبلتها، ثم قدّمت شخصاً مألوفاً وهي تقول:

ـ أرجو أن لا يكون لديك مانع، يا هاريت، لكنني أحضرت شخصاً معي.

أخذت هاريت تحدق بذهول بالغ إلى السنيورا فورتيناري التي ابتسمت لها بحرارة، ثم عانقتها وقبلتها على وجنتيها اللتين شحبتا من المفاجأة، وقالت بحنان:

ـ يا حبيبتي! أتظنين أنني أتطفل على هذه المناسبة! طلبت من روزا أن تحضرني إلى هنا للتعزية في هذه المناسبة الحزينة. هل لك أن تعرفيني بوالدتك؟

قدمت هاريت أمها وأختها وزوجها، فيما كانت تشعر بالدوار ثم استدارت مدهوشة لتحيي باسكال.

www.liebvity.com منتديات روايتي

ـ كم هو لطف منك أن تأتي! لم أعلم بعودتك.

قالت هاربيت ذلك، ثم التفتت إلى روزا بسرعة:

ـ لم تقولي كلمة عن مجيء جدتك!

فقالت روزا: «أنا نفسي لم أكن أعلم. لقد وصلت نونا هذا الصباح على غير موعد ثم أصرت على المجيء معنا».

استدارت هاربيت لحظة لتحيي بعض كبار السن من المقربين، ولكنها تسمّرت فجأة في مكانها! وتوهج وجهها الشاحب، وكادت تقع أرضاً لولا يد ليو فورتيناري التي أسندتها! كان واقفاً هناك ينتظر دوره بفارغ الصبر لتعزيتها.

***

٩ ـ وجه الشبه

قالت بتوتر: «لن يغمى عليّ! لماذا لم تخبرني بقدومك، الليلة الماضية؟».

أمسك بيدها: «كنت أعلم أنك ستمنعينني من المجيء».

فقالت روزا، وقد تألقت عيناها: «ولكن لماذا تمنعك؟».

فقال ملقياً على ابنة عمته نظرة عدائية:

ـ لأن هاربيت محرجة جداً للدور الذي أرغمتها أنت على القيام به.

انتبهت هاربيت فجأة إلى أنهم، هم الثلاثة، كانوا يتحدثون باللغة الإيطالية، وأن أمها وأختها كانتا ممتلئتين فضولاً رغم جهدهما في عدم إظهار ذلك.

وضعت روزا ذراعها حول هاربيت وهي تبتسم لجدتها التي هتفت متعجبة لمنظر الوجهين متلاصقين:

ـ هذا محيّر، أليس كذلك يا نونا؟ دعيني أقدمك يا كلير إلى ابن خالي ليو.

انحنى ليو يقبل يد والدة هاربيت وهو ينطق بكلمات التعزية:

ـ لعلنا لم نتطفل على هذه المناسبة الحزينة!

عبرت كلير عن سرورها بجميع المعزّين، ولا سيما ليو وجدته.

نظر ليو إلى جدته متسائلاً: «العلنا لن نستطيع التأخر كثيراً؟!».

فقالت كلير بحزم: «نريدكما أن تمكثا معنا. [ثم ابتسمت لليو ابتسامة صغيرة] إنني ممتنّة ودهشة لقدومكما إلينا في هذه الظروف!».

بعد انتهاء الجنازة، وأثناء العودة إلى البيت في السيارة، أخذت كيتي

www.sawity.com منتديات

وزوجها في الاستفسار عن آل فورتيناري، مرغمين هاريت على إعطاء بعض المعلومات البسيطة عن رحلتها إلى توسكاني.

قالت كيتي: «كانت روزا موستين مجنونة عندما اعتقدت أن بإمكانك القيام بذلك الدور!».

فقالت الأم برقة: «ومع ذلك قامت هاريت بالدور! كما أن باسكال قد رجع والحمد لله! كل شيء اتضح في النهاية ولم يتضرر أحد».

لم تكن هاريت توافق أمها على ذلك. وخلال فترة بعد الظهر، حين وزعت المرطبات والأشربة، كانت تشعر طوال الوقت بعيني ليو تتابعان كل تحركاتها، حتى وهو يتحدث إلى باسكال وتيم.

همست روزا لهاريت وهما في المطبخ: «يبدو أن ابن خالي المتغطرس غارق في حبك. إنه لا يحوّل عينيه عنك!».

تمتمت هاريت بذلك وهي تحمل صينية: «هذا فقط لأنه يرانا معاً. تشابهنا يجذب الأنظار كالعادة. هل لك أن تفتحي لي الباب، من فضلك؟».

فقالت روزا ساخرة وهي تلحق بها بمزيد من الطعام: «صدقيني أنه يميز إحدانا عن الأخرى جيداً.. بالنسبة إليّ، ما زال هو نفسه ليو فورتيناري، المتغطرس القديم، لكنه مفتون بك إلى حد الجنون، يا هاريت فوستر!».

عندما أخذ الناس يغادرون، وفيما كانت تودع آخر جيرانها إلى الباب، شعرت بالتوتر ذلك أنها وجدته واقفاً خلفها مباشرة وهو يقول بالإيطالية، بسرعة وبلهجة آمرة:

ـ يجب أن أتكلم إليك على انفراد يا هاريت!

قطبت جبينها: «لماذا؟».

ـ إذا تمكنت من الانفراد بك لحظة، سأخبرك.

همست: «هذا غير ممكن! متى تعود إلى إيطاليا؟».

ـ عند الصباح. أما نونّا فهي باقية حتى حفلة روزا.

ـ هل ستعود لحضور الحفلة؟

فازداد اقتراباً منها: «وهل تريدين مني أن أحضر؟».

ـ ليس هذا هو الموضوع. إنه عرس روزا وهي تريد منك أن تحضر.

ـ إذا أردت أنت حضوري، فأفعل. إنك شاحبة يا هاريت!

ومد يده يلمس وجنتها. فتراجعت قائلة: «أنا بخير! بعض الإرهاق بسبب مناسبة الجنازة».

ـ بدا عليك الذهول البالغ لرؤيتي. لعلك آسفة لقدومي؟

قال ذلك برقة، وقد تألقت عيناه بنظرة جعلت ركبتيها ترتجفان.

قالت بتكلف وهي تتمالك نفسها: «إنه لكرم زائد منكما، أنت والجدة، إذ تكلفتما مشقّة الحضور».

ـ رسمياً، جئت بصفة مرافق لنونا؛ أما في الحقيقة فقد جئت لأنني أريد رؤيتك. ولكنك لم تجيبي عن سؤالي. هل أنت مسرورة برؤيتي يا هاريت؟

أجابت بحدة: «كيف تتوقع مني السرور وقد كنت غاضباً في آخر مرة اجتمعنا فيها؟».

ـ ها أنت ذي هنا! حان وقت جلوسك لتسترجي، هاريت. فقد اشتغلت كالخدم.

وفي غرفة الاستقبال، أجلست السنيورا فورتيناري بجانب كلير فوستر، ثم أخذت تتحدث مطولاً عن حفيدتها روزا وعرسها القادم، قائلة وهي تغمز بعينيها:

ـ إنه ليس تماماً العرس الذي كنت أفكر فيه. كنت أرجو دائماً أن تتزوج بليو.

فقالت روزا ضاحكة للبو: «ولكننا أنا وليو قريبان جداً عائلياً، هذا عدا العقبات الأخرى يا نونّا».

ضحكت الجدة بصوت خافت: «ها، ها! حسناً! لا شك إذن بأن ما حدث هو الأفضل. لقد وعدني خطيبك باسكال ببذل جهده في العناية بك وأنا أصدقه».

ـ شكراً يا سيدتي!

قال باسكال ذلك وهو ينحني باحترام، بينما ابتسمت له روزا بشغف

www.rewity.com

ظاهر جعل ليو يهز رأسه بعجب.

- كانت هاريت على صواب إذن، يا روزا! لقد أخبرتني بأنك تغيرت كثيراً.

نظرت إليه روزا بعينين ضيقتين: «متى أخبرتك بذلك؟».

ساد الغرفة صمت مفاجىء؛ ثم قال ليو بلطف: «كنت أتحدث إلى هاريت منذ لحظة واحدة فقط».

قالت الجدة: «لا بد أن الأمر يبدو غريباً بالنسبة إليك يا عزيزي بعد أن علمت بأنها ليست روزا. ولا بد أنك تشعر الآن، بعد زيارتها لنا، بأنك تعرفها أكثر مما تعرف روزا».

قالت كلير برقة: «لا بد لي من القول، يا سنيورا، إن هاريت لم تقبل بهذا الانتحال لشخصية روزا إلا بعد جهد جهيد؛ فلا تغضبي منها، أرجوك!».

- أنا لست غاضبة على الإطلاق، يا عزيزتي كلير! لكنها كانت مفاجأة كبيرة لي.

وابتسمت السنيورا فورتيناري ومدت يدها إلى هاريت.

ثم أضافت: «لكنني أرجو أن تأتي قريباً لزيارتي بشخصيتك الحقيقية، يا عزيزتي. أظنني لست مخطئة في أنه كان بيننا، أنا وأنت، تعاطف كبير».

ابتسمت هاريت بحرارة وهي تمسك باليد الضعيفة: «منذ البداية، يا نونّا!».

- سنتبنى إذن بعضنا البعض. [قالت السنيورا هذا باسمة، ثم نظرت إلى كلير] هل لديك اعتراض؟

- بالعكس! سيسرني هذا!

قالت كلير ذلك بارتياح ظاهر.

بعد ذلك ازداد جوّ الغرفة إشراقاً. وسرعان ما استغرقت روزا وكيثي في أحاديث متفرقة، بينما تابعت السنيورا فورتيناري حديثها مع كلير. أما تيم وباسكال فقد اكتشفا أن لديهما حباً مشتركاً لكرة القدم فانخرطا في الحديث

عنها. أما ليو فقد ألقى على هاريت نظرة آمرة فنهضت هذه واقفة: «هل تريدون القهوة؟».

عندما توجهت نحو المطبخ تطوعت كيثي لمرافقتها، لكن روزا أمسكت بذراعها: «لا تزعجي نفسك. ليو سيساعدها».

قالت ذلك بسرعة، فازت على أثرها بنظرة شاكرة من ابن خالها الذي أخذ من يد هاريت صينية الأشربة، سائلاً: «إلى أين تريدين أخذ هذه؟».

فسارت هاريت أمامه إلى المطبخ، متوهجة الوجه بسبب العيون التي تبعتهما بفضول.

ما إن أصبحا في المطبخ حتى وضع ليو الصينية من يده على المائدة وأمسك بيديها وهو يقول بسرعة بالإيطالية: «لا يمكنني الرحيل قبل التصالح معك. منذ رحيلك تملكني الندم لغضبي منك».

تنهد ثم أضاف: «جئت لأسألك على انفراد، عما إذا كنت تريدين مني حضور الزفاف».

- أما كان عليك توجيه هذا السؤال إلى روزا؟

- أنا أسألك أنت!

قالت دون اهتمام: «نعم بكل تأكيد! أما الآن، فعليّ أن أُعدّ القهوة. لا بد أنك تظننا أسرة شاذة لأننا نبدو بهذا الهدوء يوم جنازة جدتي!».

جلس ليو على حافة المائدة ينظر إليها وهي تصنع القهوة: «لا! من الواضح أن أمك مرهقة للغاية. أما أختك فهي ليست من النوع العاطفي».

- بينما أنا، كما تعلم، أشعر بالميل إلى جدتك أكثر مما شعرت نحو جدتي.

ونظرت إليه من فوق كتفها بأسى: «لسبب ما، لم تكن جدتي تحبني كثيراً».

فقال بسرعة: «لكنني أنا أحبك. تعلمين جيداً أنني مغرم بك».

نظرت إليه ذاهلة: «لكنك لا تعرفني تماماً، ليو».

أخذت يداها ترتجفان وهي تضع الفناجين والصحون دون أن تنتبه إلى ما

www.reality.com

تفعل، وكان هو يراقب حركاتها بدقة.

ـ أعرفك إلى حد كافٍ. منذ اللحظة التي قابلتك فيها في المطار، وجدت أن من الصعب أن أسيطر على رغبتي في المرأة التي كنت أظنها روزا ورحت طوال الوقت أقاوم ذاك الحب.

أشاحت هاربيت بوجهها عنه سريعاً قبل أن يلاحظ مبلغ سرورها بما قال، ثم قالت، خلافاً لرغبتها الحقيقية: «على ذكر روزا، الأفضل أن نعود».

تنهد ليو وهو يأخذ الصينية منها: «ليتني أستطيع دعوتك إلى العشاء هذه الليلة. لكنني أعلم أن الأمر مستحيل في هذا الظرف. عندما أعود الأسبوع القادم لحضور العرس، سأستولي على كل وقتك».

بعد قليل، تكلم ليو مع جدته التي أشارت إلى روزا قائلة إن الوقت حان للخروج.

قالت روزا بأسف: «أترين أننا أتعبنا كلير وهاربيت، وربما كيثي؟».

تصافح الجميع، ووعدت السنيورا فورتيناري بزيارة أخرى قبل حفلة الزفاف.

قالت وهي تعانق هاربيت: «تصبحين على خير، يا صغيرتي. اعتني جيداً بأمك الرائعة. وسأراكما قريباً».

أثناء جلبة الوداع، لم يلحظ أحد أن ليو أمسك بيد هاربيت وضغط عليها حتى شعرت بالألم. أخذت تحرك أصابعها وهي تعود إلى الداخل مع أمها وأختها، وقبلت، شاكرة، تطوع تيم بصنع الشاي أو توزيع الأشربة حسب المراد.

قالت الأم متنهدة: «في الواقع، عندما تسمعون ما سأقول، ستوافقونني الرأي بأن الشراب المهدّىء هو المطلوب للجميع».

نظرت كيثي بدهشة: «لماذا يا أمي؟ هل حدث شيء سيء؟».

لم تصرح الأم بشيء إلا بعد الفراغ من إعادة ترتيب المكان، وجلوس هاربيت بجانب كيثي تستمع متوجسة. أما تيم، بلباقته المعهودة، فقد استأذن وذهب يشاهد التلفزيون.

قالت كيثي بمزاح: «سأخبره بكل شيء لاحقاً! هيا يا أمي! كلنا آذان صاغية».

قالت الأم: «أريد أن أعتذر، أولاً، إليك يا هاربيت، لصمتي طوال الأسبوع. ولكن كان من الأفضل الانتهاء أولاً من أمر الجنازة قبل أن أعترف بهذا السر».

اندفعت كيثي تقول: «سر؟! ما نوعه؟».

فقالت كلير إن والدتها العجوز، بعد رحيل هاربيت إلى إيطاليا، أخذت تشكو من تدهور صحتها. وإذ فهمت كلير من ذلك أنها إنما تستدر المزيد من العناية، أخذت في مداراتها وقضاء وقت معها أكثر من المعتاد، تفتح لها التلفزيون وتقرأ لها. ولكن مساء السبت، أخبرت الجدة ابنتها فجأة أن هناك شيئاً عليها أن تعرفه، ثم طلبت حقيبة يدها، وأخرجت منها رسالة.

قالت كيثي، وقد تألقت عيناها: «وصية؟ لا أظن أن لديها شيئاً تخلّفه لنا!».

قالت هاربيت بسرعة: «كفى مقاطعة يا كيثي ودعينا نعرف محتوى الرسالة».

كانت نية الجدة أن تترك الرسالة لتُقرأ بعد موتها، لكنها تلك الليلة شعرت بدافع مفاجىء للاعتراف بما أذهل ابنتها.

قالت كلير: «تملكني شعور غريب جداً وأنا أجلس بجانب أمي وأقرأ رسالة عرفت منها أنها لم تكن والدتي حقاً. [ومنحت هاربيت ابتسامة ملتوية] وباختصار، أنا التي كنت متبناة، وليس أنت!».

هتفت كيثي: «يا إلهي! ولم تقل جدتي شيئاً؟!».

هزت كلير رأسها: «ما زلت لا أستطيع تصديق ذلك. لكنها الحقيقة».

قالت هاربيت ذاهلة: «لكنك تشبهين جدتي كثيراً!».

ـ هذا لأنه كان أبي حقاً. ولكن هذه لم تكن أمي الحقيقية.

وأخرجت كلير مغلفاً من حقيبتها وناولت هاربيت صورة فتاة سمراء سوداء الشعر ترتدي ثوباً طويلاً ذا كمين واسعين من الجورجيت.

هتفت كيثي وهي تنظر من فوق كتف أختها:

www.rewity.com

ـ أوه! . . إنها تشبهك، في طراز ملابس الثلاثينات، يا أختي!

قالت هاريت بسرعة: «وماذا كان اسمها؟».

ابتسمت كلير: «كيارا روسو». وهكذا فأنت لست شاذة الملامح، كما كنت تظنين، وإنما تشبهين جدتك.

حسب قول الجدة، تعرف زوجها هاري موريس إلى «كيارا» في إحدى رحلاته الكثيرة إلى إيطاليا لأجل شركته، وذلك في أوائل الثلاثينات. وقد اعترفت الجدة «أنيد مورسي» بأنها، عندما علمت بأنها عاقر لا تنجب، لم تجد سبباً يدفعها إلى الاستمرار في النوم مع زوجها في السرير ذاته. وهذا يعني أن زوجها هاري، عندما قابل «كيارا»، اتخذها زوجة له بالسرّ. وعندما رفضت «أنيد» أن تطلقه، هربت «كيارا» من منزل أسرتها لتلتحق بهاري في إنكلترا.

تذكرت هاري جدها الوسيم الطويل القامة بشكل ضبابي، وشعرت بغصة في حلقها عندما قالت أمها كيف أن جدها اشترى شقة في تشلتنهام لحبيبته. ولكثرة أسفاره، كما يقتضي عمله، تظاهرت أنيد بأنها لا تجد غرابة في غيابه المستمر، لكنه عاد يوماً إلى البيت قانطاً حزيناً فقال لها إن كيارا ماتت أثناء الولادة.

ـ كانت «أنيد» تعلم كل شيء عن «كيارا». وقد رفضت في البداية أن تصغي إليه. ولكن عندما أخبرها أبي أنه سيأخذ الطفلة إلى أسرة «كيارا» في إيطاليا، تغير موقفها. طلبت أن تراني، فرأت أن لي بشرة بيضاء وعينين زرقاوين وشعر أحمر. وهكذا كان.

نظرت هاريت إليها بحيرة: «ماذا كان سيحدث لو أنك كنت تشبهين «كيارا»؟».

ـ لأخذوني إلى أسرة أمي في إيطاليا، كما أظن. ولكن يظهر أن أمي الثانية ألقت عليّ نظرة واحدة، ثم أحست برغبة شديدة في امتلاكي.

فقالت هاريت: «وهذا الشعور لم يغادرها قط!».

فقالت كيتي: «ومن المحيّر أنها سمحت لك بالزواج!».

ابتسمت الأم: «من حسن الحظ أن أباك أحبني إلى حد جعله يأتي ليعيش

هنا».

عادت كيتي تنظر إلى الصورة، ثم إلى هاريت: «لا عجب أن الجدة لم تحبك قط يا أختي!».

قالت الأم: «من الواضح الآن أن هاريت كانت تذكّرها دوماً بشيء أرادت أن تنساه. كما أن شغف أبي بهاريت لم يشفع لها أيضاً، ولا حقيقة أنني سميتها باسمه. كنتِ في الخامسة من عمرك فقط عندما مات، يا هاريت، ولهذا لا أظنك تذكرين مبلغ ولعه بك.

ابتسمت هاريت: «بل أذكر، في الواقع. ولكن عندما تعود بي الذكريات إلى الوراء، أجد أن موقف جدتي مني هو الذي جعلني أظن أنني متبناة. ولكن إذا كان اسم جدتنا هو «روسو»، فهذا لا يفسر شبهي بروزا، لأن أمها من أسرة فورتيناري».

قالت كلير وهي تنظر إلى ابنتها بانزعاج: «ذلك هو أحد ألغاز الحياة، كما أظن. أظن أن هناك المزيد. ففي وصيتها تركت أمي المنزل ومبلغاً كبيراً من المال لي أنا، بالإضافة إلى خمسة آلاف جنيه لكيتي».

قالت هاريت غاضبة: «أتعنين أنها كانت تستطيع استئجار ممرضة، ومع ذلك تركتك بحاجة إلى عملية منذ شهور؟».

ـ ليس هذا هو الموضوع يا عزيزتي. لم تترك لك شيئاً.

هزت هاريت بعد مبالاة: «لم أكن أنتظر منها أن. . .».

اندفعت كيتي تقول: «سأشاركك نقودي!».

ـ لا يا كيتي. احتفظي بها لطفلك!

وقفزت هاريت واقفة وهي تعقد ذراعيها على صدرها.

ـ ما يغيظني هو أنني اضطررت إلى انتحال شخصية روزا والسفر إلى إيطاليا. فلو أعطت الجدة أمي نقوداً لإجراء العملية وإصلاح المنزل لما اضطررت إلى ذلك.

توقفت عن الكلام عندما رأت نظرات الجميع منصبّة عليها، وسألت بتعجّب: «ماذا؟!».

قالت كيتي بصراحتها المعروفة: «إذن ما كنت تعرفت إلى ليو فورتيناري! لا تحاولي القول إنه لا يهمّك. كان واضحاً، حتى لزوجي تيم، أنكما، أنت وليو، مغرمان ببعضكما البعض».

جلست هاريت فجأة، دافعة شعرها عن وجهها المتوهج. فسألتها أمها بلطف: «أنت تحبينه، أليس كذلك؟».

- لقد تعرفت إليه لتوّي...

فقالت كيتي: «وماذا في الأمر؟».

- لكنه كان يظنني روزا إلى وقت قريب.

قالت الأم باسمة: «لكنه لم يعد كذلك. إنه، في الواقع، ما زال ينظر إلى روزا بصفتها ابنة عمته الشيطانة».

قالت هاريت مغيرة الموضوع: «هل يمكنني أن آخذ نسخة عن صورة «كيارا»؟ أحب أن أحتفظ بها».

قالت كيتي: «وأنا أريد نسخة أيضاً. القصة شاعرية محزنة. يا للصغيرة المسكينة «كيارا»!».

ووقفت وهي تتنهد: «سأحضر الشاي، ثم آخذ تيم إلى الفراش وأحدثه بالقصة».

- سأحضّره أنا!

قالت هاريت هذا وهي تقفز واقفة. لكن كيتي منعتها بهزة من رأسها، قائلة: «اجلسي!».

أذعنت هاريت وهي تتبادل نظرة طويلة مع أمها:

- لا عجب أن كنت طوال الأسبوع منعزلة بنفسك. لا بد أن هذه كانت صدمة كبرى لك.

- هذا صحيح! لكنها أوضحت كثيراً من الأمور. كانت أمي صعبة أحياناً، لكنني أعلم أنها كانت تحبني.

- لم يكن ثمة شك في هذا.

- يبدو أنه كان هناك شروط من كلي الطرفين. حين وافقت على أن

تتبناني، أصرت على ألا يخبر أبي آل «روسو» بسوى موت ابنتهم، دون ذكر شيء عن الطفلة. أما أبي فقد كان شرطه أن يكون اسمي هو الترجمة الانكليزية للاسم الإيطالي «كيارا».

قالت هاريت بحزن: «كان يحبها حقاً».

- هذا مؤكد! مسكينة أمي! كنت لها بمثابة تعويض. صحيح أنني ابنة زوجها، ولكنها عاملتني كابنتها. ومع ذلك لم تكن عادلة في معاقبتك لمجرد أنك تشبهين «كيارا». سأعطيك بعض النقود التي تركتها لي.

هزت هاريت رأسها باستنكار: «أفضّل أن تحتفظي به وتستثمريه، أو تنفقيه على الرحلات... أو على أي شيء تحبين. فقد تعبت في تحصيل كل قرش منه».

ونهضت مجفلة وهي تسمع صوت رنين التليفون، وكادت تصطدم بتيم الذي كان عند العتبة يحمل صينية الشاي.

قال ضاحكاً: «إنه لأجلك يا هاريت».

وفي المطبخ، عضت هاريت شفتها بخيبة أمل حين وجدت أن المتصل هو روزا.

- اتصلت فقط لأسألك عن حالك. أرجو أن لا تكونوا انزعجتم عندما جاء ليو ونونّا معنا اليوم.

- طبعاً لا! كان هذا لطفاً كبيراً منهما.

أخذت روزا تضحك: «كان ليو لطيفاً؟ لعله لطيف معك فقط!».

- وكيف حال نونا؟ آسفة يا روزا...

- وبماذا تنادينها غير ذلك؟ هي بأتم خير. يبدو أنها قامت بالرحلة بدون أن تشعر بالإرهاق. اسمعي، سأتصل بك مساء الغد. بلغي حبي لأمك، ولكن لا تقفلي التليفون، هناك شخص يريد التحدث إليك.

ثم حدث تبدل سريع إلى اللغة الإيطالية، فقال الصوت الذي يذيب العظام: «هاريت؟!».

هبطت تجلس على الأرض وهي تقول بالانكليزية:

- مرحباً ليو! شكراً لاتصالك!

www.rewity.com منتديات رواية

ـ أنا أعرف أنك متعبة، لكنني سأرحل في الصباح الباكر ولا بد من التحدث إليك قليلاً. أقلقني منظرك اليوم إذ بدوت شاحبة متعبة.

ـ لأنني كنت مشغولة جداً.

ـ وحزينة طبعاً! هارييت، سأعود متأخراً مساء الجمعة، لهذا لن أراك قبل حفلة العرس. أخبرتني روزا أنك ستكونين وصيفة العروس.

قالت لاوية شفتيها: «وهذا سيحدث ضجة. رغم أن التمييز بيننا لن يكون صعباً».

ـ عندما رأيتكما معاً بدا الاختلاف واضحاً. روزا أطول قامة، وشعرها منسدل، ولا أشعر نحوها بسوى المودة. أما نحوك، فشعوري مختلف جداً.

قالت بحرارة: «ربما أنت مخطىء.. فلعلك ما زلت تحت تأثير شبهي بروزا..».

قال بلغته شيئاً لم تفهمه. قاله بغضب، ثم سكت لحظة، وعاد يقول:

ـ اسمعي.. قلت أن لا علاقة لما أشعر به بشبهك بروزا. وهذا ليس موضوعاً يناقش على التليفون. ستتابع ذلك عندما نتقابل. إنما الآن سأدعك ترتاحين. أرجو منك أن تكرري شكري لأمك على استضافتنا. لم نكن نتوقع ذلك.

ـ ليو...

فأجاب بسرعة: «نعم».

ـ هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً قبل أن تذهب؟

ـ أي شيء تتمنينه.

ـ ماذا كان اسم جدتك قبل زواجها؟

أجاب بدهشة: «كوريللي لماذا؟».

ـ خسارة! لا شيء مهم... شكراً! وداعاً يا ليو!

قال بسرعة: «انتظري لحظة. ما هذه الخسارة التي تتحدثين عنها...».

ـ أرجوك...

قال آمراً: «اسمعي. إنني أفكر فيك كهدية تضاف إلى ممتلكاتي، يا هارييت. وما أملكه أحتفظ به على الدوام. إلى اللقاء».

١٠ ـ الغزو الداهم

أخيراً، وبعد إلحاح من أمها، أخذت هارييت أسبوع إجازة إضافياً من عملها.

قالت الأم: «ستتركين عملك بعد عيد الميلاد على كل حال، عندما تبدئين العمل في مدرسة «روديل». يسرني أن تبقي معي في البيت وقتاً إضافياً».

كان هذا الطلب ساراً جداً بالنسبة إلى هارييت. فنادراً ما كانت أمها تتوسل إليها طلباً للمساعدة. وشعرت هارييت بارتياح كبير حين ذهبت أمها إلى عيادة الأمراض النسائية وطمأنها الطبيب إلى أن جراحة بسيطة ستعيد إليها الصحة الكاملة.

لقد دفعت روزا أجرة الطبيب مقدماً، ولم تشأ أن تسمع شيئاً عن سداد الدين.

قالت ذات مساء أثناء زيارة للاطمئنان على «كلير»:

ـ لا! كان هذا اتفاقاً بيننا، وأنا أدين به لك يا هارييت.

ـ لكن جدتي تركت لأمي كثيراً من المال، وهي تريد أن تساهم في الكلفة.

ـ أبداً! سأدفع أجرة العملية، وانتهى الأمر!

بما أن السيدة فورتيتاري لن تستطيع الذهاب إلى دور الأزياء، فقد طلبت روزا من أحد أرقى المتاجر إرسال ملابس مناسبة إلى فندق هوميتاج. وكانت كلير وابنتها هارييت مدعوتين إلى الغداء مع روزا وجدتها لتساعدا في الاختيار. وفي الغرفة الخاصة بالجدة، وعندما بدت الدهشة على وجه النادل وهو ينظر إلى روزا وهارييت تبادلتا ابتسامة.

www.liilas.com منتديات ليلاس

قالت روزا ضاحكة: «يا للمسكين! لم يستطع أن يصدق عينيه».

قالت السنيورا محذرة: «سيكون الأمر كذلك يوم الزفاف. لهذا عليك أن تختاري ثوباً يختلف كثيراً عن ثوب هاريت».

عبست روزا: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً بالنسبة لوجهينا، إلا إذا لبست كل واحدة منا كيساً ورقياً فوق رأسها!».

بعد ذلك بساعتين، وقع اختيار الجميع على ثوب للعروس من الشيفون، وآخر من المخمل البني لهاريت.

قالت هاريت وهي ترشف الشاي: «هذه طريقة رائعة للتسوق!».

فقالت الجدة: «وهذا مربح جداً لصاحب المتجر. [ثم ابتسمت لهاريت] تحسنت كثيراً، يا عزيزتي! سيسر ليو لرؤيتك بحمرّة الوجنتين. كان قلقاً جداً عليك!».

قالت روزا بابتسامة عريضة: «هل تعلمين يا نونا؟ بما أنني لم أعد في وارد الزواج بليو، أرى من المناسب زواج هاريت به».

هتفت هاريت، وقد كادت تختنق بالشاي: «روزا!».

فقالت السنيورا بهدوء: «هذا ما أراه أنا أيضاً. صحيح أنهما لم يتعارفا إلا منذ وقت قصير، لكن ليو أصبح يكنّ شعوراً عميقاً نحو هاريت، كما أظن. وهذا الزواج سيسرني جداً، وسأتحدث في الأمر إلى ليو».

نظرت كلير إلى وجه ابنتها المتوهج احراراً:

ـ لعل هاريت تفضل ألا تفعلي هذا، يا سنيورا.

سألت السنيورا بدهشة: «ولم لا، يا طفلتي؟ هل تنكرين أنك تبادلينه نفس الشعور؟».

أمام ثلاثة أزواج من الأعين المنصبة على وجهها مستفهمة، لم تستطع هاريت أن تكذب. فقالت بكبرياء: «لا. أنا معجبة به جداً، ولكن لا شيء أكثر من هذا».

ابتسمت السنيورا بتسامح: «لا بأس! لن أتدخل».

***

لم تكن هاريت لتعترف قط بأنها كانت تتوقع اتصالاً من ليو قبل الحفلة. وعندما لم يتصل، شعرت بجرح عميق. لحسن الحظ، كان الأسبوع حافلاً بالعمل. وإذ أصبح لدى كلير مال تستطيع، لأول مرة، إنفاقه على الملابس، أخذت ابنتها هاريت للتسوق عدة مرات، حتى وجدت شيئاً ترتديه في العرس، وثوباً آخر لحفلة العشاء التي دعاهما إليها توني وأليغرا موستين مساء الجمعة. سيكون ليو ودانتي هناك، لكن ميريلا لن تتمكن من الحضور لاقتراب موعد ولادتها، وستتعرف إلى باسكال عندما يزور فورتينو مع روزا أثناء شهر العسل.

تخوفت هاريت قليلاً من حفلة العشاء، ولكن بعد حديث ودّي من توني وأليغرا موستين ومزاح كثير من دانتي المليء بالحيوية، ابتدأت السهرة بشكل جيد.

أما ليو فقد كان غير قادر على مغادرة فورتينو ذلك اليوم، فخاب أمل هاريت.

قال دانتي الذي كان جالساً بقرب هاريت في غرفة الطعام الخاصة التي حُجزت لهذه المناسبة:

ـ إن لديه اجتماعاً هاماً مع بعض الصناعيين الأوسترالين، عصر هذا اليوم. وقد طلب مني أن أسبقه، وأوصاني أن أخبرك بأنه سيكون هنا صباحاً وسيراك في الكنيسة.

وعندما انتقلت عيناه من وجهها إلى وجه روزا، هز رأسه بعجب.

ـ عندما أخبرني ليو بأنك لست روزا، لم أصدقه. الشبه غريب!

كان الحديث يدور بالانكليزية لأن كلير وأليغرا لا تحسنان الإيطالية. وقد ابتسم الجميع وهم يرون أليغرا تضع بجانب طبقها مضخماً للصوت متصلاً بغرفة أخرى وهي على أتم استعداد للركض إذا سمعت صوتاً من طفلها. لحسن الحظ كانوا يشربون القهوة بعد العشاء عندما اخترقت المسامع صرخة الطفل المستبدة.

ـ ابقي مكانك يا عزيزتي! سأحضره إلى هنا، ولن يمانع أحد في ذلك.

www.rewity.com

قال توني ذلك، عندما هيّت زوجته واقفة.

طمأنه الجميع إلى أنه سيسرهم ذلك. وبعد القهوة مباشرة، ظهر الأب الفخور حاملاً لفافة صغيرة.

ـ لقد غيرت فوطه، وسخنت زجاجته، وهكذا أسلمه إليك يا «مامي».

تلقت أليغرا طفلها بحنان بالغ.

قال دانتي: «سمعت أنك ستكونين وصيفة العروس غداً. سألتقط صوراً جميلة للعرس».

ـ لن تكون ثمة مشكلة بالنسبة لشخصية العروس الحقيقية... أنا سأكون الأخرى التي من دون عريس. هل تظنني مجنونة لانتحالي شخصية روزا، إذن، يا دانتي؟

ـ لكي تجعلي عيد ميلاد جدتي سعيداً؟ لا! [وشدّ على يدها] غريب جداً أن أناديك الآن باسم هاربيت، وأن أفكر أنك لست ابنة عمتي مع الأسف. لكنني أظنك كنت بالغة الشجاعة، ولا بد أن روزا شاكرة لك جداً.

ونظر إلى الباب وهو يُفتح، ثم ألقى بيد هاربيت كأنه يلقي كعكة ساخنة، وهو يقول بأسف: «رباه!، جاء ليو، أخيراً!».

جمدت هاربيت مكانها وقلبها يخفق، أما روزا وتوني فهرعا للترحيب به. بدا التعب على ليو الذي كان أقل أناقة من العادة. لكن نظرة واحدة إليه، غيرت المساء بالنسبة إلى هاربيت. بعد التحيات، وبعد تقديمه واجب التقدير للعضو الجديد الصغير في أسرة موستين، ألقى نظرة عفوية على أخيه، فوقف هذا مبتسماً باستسلام، ثم أخلى له مكانه.

جلس ليو بجانب هاربيت مبتسماً لها: «لقد تأخرت. سامحيني!».

قالت روزا ضاحكة: «كان عليك أن تسألني أنا السماح، وليس هاربيت. هيا إذن، يا ليو، وأعطني أوامرك. ماذا تريد أن تأكل؟».

ابتسم ليو لابنة عمته، لكنه رفض الطعام مفضلاً القهوة. وفي هذا الوقت تمالكت هاربيت مشاعرها محاولة التفتيش عن شيء مهم تسأله عنه. لم تقع سوى على سؤال عادي، كان في نظرها تافهاً: «هل كانت رحلتك جيدة؟».

ـ لا! لم تكن كذلك!

ورمقها بنظرة شملت تفاصيل وجهها وطراز ثوبها وشعرها الذي كوّمته فوق رأسها، ذلك لتبدو مختلفة عن روزا قدر الإمكان.

قال بصوت خافت: «يبدو عليك التحسن، يا هاربيت!».

ـ شكراً!

ـ وأمك، كيف حالها؟

ـ لا بأس.

ـ لم أتصل بك لأنني أردت أن تشتاقي إليّ.

نظرت إليه بعينين ضيقتين وقالت كاذبة:

ـ لم يسمح لي انشغالي بأن أشتاق إليك. كنت مشغولة بأمور أمي، وروزا طبعاً.

ـ طبعاً! [وألقى نظرة على ابنة عمته] دائماً روزا! إنني أحيي شجاعة باسكال للإقدام على الزواج بها.

نادت روزا من آخر الغرفة: «ما الذي تقوله عني؟».

ـ كنت أقول إن باسكال رجل محظوظ.

فابتسمت هاربيت، وهي تقول بصوت منخفض:

ـ باسكال محظوظ فعلاً، بعكس انطباعك عن روزا. كل ما تريده هو علاقة محبة واستقرار وكذلك أطفال.

سألها ليو: «وأنت؟ هل ترغبين في هذه الأشياء نفسها؟».

ـ كل منا يريد أشياء مختلفة.

قالت ذلك وهي تسكب له القهوة وتضع السكر وتناوله الفنجان. ولكن لما رفعت رأسها، رأت روزا والسنيورا فورتيناري تراقبانها باسمتين.

ـ شكراً! [قال ليو ذلك وهو ينظر إلى أخيه الذي كان يتحدث إلى أليغرا]... إذن كان دانتي يسليك قبل حضوري!

ـ نعم، رغم أنني لم أكن متلهفة إلى رؤيته الليلة، ولا إلى رؤية توني وأليغرا لأول مرة. ولكن بعد قليل أصبح الجميع ودودين متعاطفين.

قال ليو متجهماً: «أكثر من مجرد متعاطف، إذا أنت أفسحت له في المجال. لا ترسمي أحلاماً إذا لم يكن بإمكانك تحقيقها، يا هاربيت. وأنا أمنعك تماماً من تشجيع دانتي!».

حملقت هاربيت فيه باستياء: «أتعنعني حقاً؟!».

لحسن الحظ اختار توني موستين هذه اللحظة لإلقاء كلمة الترحيب بالضيوف، بينما أخذ الخدم يطوفون بالشراب على الحضور. تحدث على انفراد مع واحد منهم، ثم شرب نخب العروس، وابتسم عندما عاد النادل بلفافة لروزا. أخذت وردة رائعة، وبابتسامة متألقة وعينين دامعتين نظرت حولها وهي تعلن أنها من باسكال.

ـ أرجو أن يكون هذا صحيحاً!

قال أخوها ذلك، وهو يضحك.

كان الجميع يضحكون أما هاربيت فكانت غاضبة من غطرسة ليو، لذا اتجهت نحو أليغرا للتحدث إليها.

كانت أليغرا مخلوقة جميلة، صغيرة الحجم، ذات شعر كثيف جعد بني اللون، يحيط بوجه متعب مغطى بالنمش. لم تكن تبدو أماً لطفل ولا حتى متزوجة.

قالت لها هاربيت: «هل يمكنني حمله دقيقة؟ أعدك بألا أسقطه. يبدو عليك التعب!».

ـ أنا فعلاً متعبة. لقد فات موعد نومي.

قالت أليغرا ذلك وهي تسلمها الطفل بحذر، فجلست هاربيت إلى جانبها وهي تبتسم في وجه الطفل.

ـ سيكون أشقر طويل القامة كأبيه. إنه صورة عن توني منذ الآن.

ـ أتظنين ذلك؟

قالت أليغرا ذلك مسرورة، بينما وضعت هاربيت إصبعها في يد الطفل فشعرت بقبضته الصغيرة تُقفل تلقائياً. همست روزا في أذنها: «إذا أنت تزوجت بليو، فسترزقين بطفل مثله!».

سألها دانتي، وقد أتى ليجلس معهن: «هاربيت ما الذي قالته روزا، لكي يحمر وجهك بهذا الشكل؟».

قالت روزا بمرح: «هي أسرار نسائية. لقد حان دوري لأحتضن ابن أختي الآن، يا هاربيت. ناوليني إياه.. هذا تدريب جيد لي».

سرعان ما انتهت الحفلة بعد ذلك، وتفرّق المدعوّون خشية أن يؤثر السهر في الجدة.

عندما وقفت هاربيت مع أمها تشكران توني على هذه الحفلة، لمحت روزا تومىء بحماسة لشيء كان ليو يطلبه منها. كانت عيناه تبحثان عن هاربيت في الغرفة. وبشيء من التحدي عانقت دانتي مودّعة، ثم عانقت السنيورا فورنيناري وهي تعدها بأن تحضر باكراً في اليوم التالي.

فعلت كلير الشيء نفسه، ثم سألت توني إن كان بإمكان أحد أن يستدعي لهما تاكسي تأخذهما إلى «بينينغتون».

قالت روزا مشرقة الوجه وهي تعانق كلير وهاربيت: «لا حاجة بكما لذلك. سيقلكما ليو بسيارتي».

أجلس ليو كلير بجانبه، ثم أخذ يتحدث بشكل عام طوال الطريق إلى المنزل، وهذا ما جعل حضور هاربيت مقتصراً على الجلوس في المقعد الخلفي، ولكنها تساءلت عما ينوي عمله حين يصلون. كان واضحاً أنه مصمم على الانفراد بها بعض الوقت، لكنها لم تستطع أن تفهم كيف سيتمكن من القيام بذلك في حضور أمها.

كانت طريقته بسيطة فعالة. عند وصولهم، عرضت كلير عليه قهوة، فرفض ليو بلباقة، ثم سألها بصراحة عما إذا كان بإمكانه أن يجلس مع هاربيت بضع دقائق على انفراد.

ـ أشعر بأنني جرحت هاربيت، يا سيدتي. وأنا أرغب في الاعتذار حتى لا يبقى ما يفسد نهار روزا غداً.

هذا يعني أن كلير لا يمكنها الرفض حتى ولو شاءت. فقالت: «طبعاً يا ليوا ولكن لا تؤخر هاربيت طويلاً. أستأذنكما الآن بالذهاب إلى فراشي».

www.liilas.com

ما إن صعدت كلير إلى الطابق العلويّ، حتى ذهبت هاربيت إلى غرفة الجلوس ثم أشعلت مصباحاً ثانياً، ووقفت مشبكة ذراعيها على صدرها، أما ليو فأغلق الباب خلفه.

سألها آمراً: «إذا كنت تفضلين دانتي عليّ، فأخبريني الآن!».

قالت بهدوء: «كلمة «أفضّل» تعني «الاختيار». هل عليّ أن أختار إذن واحداً منكما؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلأيّ هدف بالضبط؟».

بدا الغضب في عيني ليو، ثم قال بسرعة:

ـ لا يمكنني أن أجيب عن دانتي، وإنما عن نفسي. أريد أن تكوني لي خليلة، يا هاربيت.

خليلة وليس زوجة... تلقت هاربيت اللطمة بهدوء. وبشكل ما، تمكنت من النظر إليه بفتور.

ـ ولكن ألن يكون هذا صعباً من الناحية الجغرافية؟ أنا أعيش هنا بينما أنت تعيش في إيطاليا!

قطب جبينه: «ستأتين إلى بيتي وتعيشين معي، طبعاً!».

التهبت عيناها غضباً: «أحقاً؟ ألن تعترض جدتك؟ ووالداك؟».

ـ أنا رجل مستقل يا هاربيت، أفعل ما أشاء. لو كنت روزا لاختلف الوضع، طبعاً.

قالت بالانكليزية: «ولأنني لست من أسرة فورتيناري، لا بأس في عدم الاهتمام بالخطوات التمهيدية، كخاتم الزواج، مثلاً».

ضاقت عيناه: «لكنك أخبرتني بوضوح تام أنك لا تريدين الزواج بأحد!».

شدّت هاربيت على أسنانها ثم قالت: «كنت أعني الزواج لأسباب مشروعة».

فاقترب منها: «وما هي الأسباب المشروعة بالنسبة إليك، يا هاربيت؟».

ـ الأسباب العادية. فأنا أريد بكل بساطة قضاء العمر مع الرجل الذي أحب.. أعلم أن عقيدتك الدينية تعتبر الزواج عملاً جاداً، ولكن لو

أحضرت العروس معها بعض الكروم، لأصبحت بالنسبة إليك أكثر جمالاً.

قال معترفاً وهذا زاد في غضبها: «هذا صحيح!».

ـ أليس للحب نصيب في هذا؟

ـ نعم، إذا كان الشخص محظوظاً. أريدك، يا هاربيت، وأعني أن تكوني لي. وما دمت لا ترغبين في الزواج، فلا اعتراض عندي بإقامة علاقة من نوع آخر.

حدّقت فيه غير مصدقة: «ليس لديك اعتراض؟! هذا أشبه بمناقشة معاملات تجارية. كنت أظنكم، أنتم العنصر اللاتيني من ذوي الدم الحار».

قال مهدداً وهو يأخذها بين ذراعيه بحرارة بددت كل شك في حرارة دمه...

ـ هل تتشكّكين في مشاعري المحمومة نحوك؟

ثم حملها ووضعها على الأريكة وهو يحتضنها بطريقة جعلت حرارتهما تبلغ حدها الأقصى.

ـ لا!

قالت ذلك وهي تحاول تحرير نفسها منه بجهد فوق قدرة البشر.

نهض ليو ومد يديه يساعدها على الوقوف.

ـ هل تنكرين هذا الشعور بيننا، يا هاربيت؟ آه، يسرني جداً أن أعلمك ما هو الحب.

ردت عليه ثائرة: «أنت تعني الجنس. [وسحبت يديها المرتجفتين من يديه]، آسفة، يا ليو! جوابي هو لا! إنك مولع جداً بكلمة (المنع)».

تلاشى التوتر من وجه ليو فجأة: «آه! هذا هو سبب رفضك لي، إذن! ما زلت غاضبة لأنني منعتك من تشجيع أخي دانتي».

فقالت ساخرة: «هذا مع أن لا علاقة له برفضي عرضك».

ـ لماذا ترفضينني إذن؟

ذهبت هاربيت إلى الباب وفتحته: «فكر في هذا، يا ليو، وربما تجد الجواب».

www.rewity.com منتديات رواياتي

عاد ليو يغلق الباب ثم يستند إليه: «أخبريني الآن لماذا ترفضينني».

ـ لن أقول شيئاً.

ـ إذن أقول لك الأسباب التي تجعلك تقبلين. لا يمكنك إخفاء تجاوبك العاطفي معي، وهذا يعني أنك ترينني جذاباً. وأنت تحبين بلادي، وتحبين منزلي، الذي فيه الوسائل التي تجعلك مرفهة العيش.. ولك أن تصطحبي أمك إذا أردت.

نظرت إليه باستنكار: «أمي؟».

ـ طبعاً! تعلمين مقدار رغبتي فيك، وأعتقد، بالرغم من إنكارك، أن مشاعرك نحوي مشابهة. [وتألقت عيناه فجأة بإشعاع تسارعت له خفقات قلبها] لو كنا وحدنا لأقنعتك بأفضل طريقة يعرفها الرجل والمرأة.

ردت عليه بحدة: «كما حاولت أن تفعل عندما كنت تظنّني روزا!».

ـ لا! أنت مخطئة. لقد فعلت ذلك لأرغمك على الاعتراف بأنك لست روزا. كنت أشك في الأمر منذ البداية، وهذا هو سبب أسئلتي الكثيرة...

فقالت بمرارة: «عن صور الأطفال الأبرياء في السقف والحالة الزوجية الراهنة للويزا براكو؟ ما دمت شككت بالأمر منذ البداية فلماذا لم تقل؟».

ـ لأنني كنت مخدوعاً. كنت أعلم أنه ليس لروزا أخت. وهكذا، مع الوقت، حاولت أن أقنع نفسي بأن روزا أصبحت امرأة جميلة ناضجة مختلفة جداً عن تلك الفتاة التي سببت الكثير من المتاعب في الماضي.

ابتعدت هاريت عنه قليلاً: «كنت أسمع أنك أنت الذي أبقيت نونا وروزا متخاصمتين».

لوى شفتيه: «لست فخوراً بذلك».

سألته: «لماذا وقع اللوم كله على روزا وليس على غيدو براكو؟».

ـ لقد عاقبت الفتى بقسوة بالغة. ولكن روزا التي هي في السابعة عشرة من عمرها، كانت نموذجاً صارخاً للإغراء. كانت هي الملومة حتماً، ولم يكن غيدو يماثلها في القدرة على الإغواء.

قالت متنهدة: «بينما كل ما كانت تريده هو لفت انتباهك. مسكينة

روزا».

ـ يمكنني الشعور بالعطف عليها الآن. لكنني، حينذاك، أخذت ألوم روزا على كل ما أفسد حياتي.

ـ كنت تحب لويزا إذن؟

ـ أنا أعلم الآن أنني لم أكن أحبها. لكنني، حينذاك، كنت أظن العكس.

ـ لماذا إذن لم تتصالحا؟

ـ الكبرياء! عندما قذفت لويزا الخاتم بوجهي، التقطته وأدرت ظهري إليها وخرجت.

ـ وهكذا تزوجت رجلاً آخر.

قال ساخراً: «نعم! لكن ذلك أشعل كبريائي. على كل حال أصبح الأمر من الماضي البعيد».

قالت بجفاء: «لعل بإمكانكما العيش معاً مجدداً».

ـ فكرت في ذلك مرة.

قالت مكشرة: «بسبب تلك الكروم المغربة؟».

ابتسم ببطء: «نعم، تلك الكروم المغربة كما تقولين. في الحقيقة، عندما دعتها نونا إلى الحفلة، كانت لديّ رغبة غامضة في المصالحة. ثم جئت أنت، فلم أعد أفكر في لويزا أو في أي امرأة أخرى».

قالت بخشونة: «في روزا فقط!».

ـ في أعماقي، يا فتاتي الجميلة، علمت أنك لست روزا. كان عقلي يعارض ذلك، لكن قلبي كان أكثر حكمة.

نظرت إليه هاريت مشككة، متلهفة إلى تصديقه: «هل هذا هو سبب اندفاعك نحوي؟».

نظر في عينيها طويلاً: «عندما هجمت عليك بعواطفي ورغباتي، أردت أن أعلم ما إذا كنت فعلاً روزا أم لا. فكرت في أنك لن تتجاوبي معي إذا لم تكوني روزا. لكنني أخيراً شعرت نحوك برغبة هائلة، بصرف النظر عمن تكونين».

www.rewity.com

توهج وجه هاريت، ثم عاد فشحب فجأة ما جعل ليو يقفز نحوها. فقالت وهي تبتعد عنه بسرعة: «لا تخف. لن يغمى عليّ كعادة العذارى».

قال بحنان فائق: «لكنك متعبة!».

ـ نعم، أنا كذلك. كما أن غداً هو يوم عرس روزا. عليّ حقاً أن أذهب للنوم.

ـ سأذهب الآن، لكن هذا الحديث لم ينته بعد. لا أشك أبداً في أننا خلقنا لبعضنا البعض.

قالت تتعمد السخرية، مغطية بذلك اضطرابها: «لكنك تعلم، يا ليوناردو، بأنك، حسب ما تقوله جدتك، لست دائماً على صواب».

فأخذها بين ذراعيه، ونظر إليها بعينين تلتهبان ثقة وتصميماً، وهذا ما جعلها تستجيب في قرارة نفسها لمشاعره.

ـ لكنني، في هذا الأمر يا حبيبتي، على صواب تام.

قال بصوت أجش: «أريدك، يا هاريت، وسأحصل عليك. تصبحين على خير. إلى اللقاء في الكنيسة».

* * *

١١ ـ كبرياء رجل

لكي تتجنب إفساد عرس روزا بمشاكلها، حاولت هاريت الاندماج فيه بحماسة لا تقل عن حماسة العروس نفسها.

ـ هل أبدو جميلة؟

سألت روزا هاريت، وهي تستدير وتتلوّى أمام المرآة في جناحها الخاص في فندق هرميتاج.

أجابتها هاريت وهي تساعدها في إقفال «سحّاب» ثوب الزفاف الأبيض: «تبدين رائعة».

ثم أمسكت بيد هاريت ووقفتا معاً أمام المرآة:

ـ التوأم السماوي! [ثم استدارت إلى هاريت تحتضنها فجأة] لا أريد أن أبكي فأفسد زينتي. لكنني أتمنى لو ابتدأت صداقتنا منذ سنوات. تعلمين كم تعجبني صداقتك... وكذلك صداقة أمك كلير. عديني بأن تزوريني في باريس بأقصى سرعة.

احتضنتها هاريت: «سأزورك طبعاً، ولكن بعد فترة. من حق باسكال الانفراد بك بعض الوقت». ثم أبعدت روزا عنها بلطف:

ـ هيا، يا عروس، نبحث عن أمي ونونّا، ونسألهما إن كان منظرك يعجبهما.

لكن روزا تباطأت: «هل يمكنني أن أوجه إليك سؤالاً أولاً؟».

ـ هذا يعتمد على نوع السؤال.

ـ كيف عرف ليو أنك لست أنا؟

www.rewity.com منتديات روايتي

وعندما رأت وجه هاريت يتوهج احمراراً، حملقت فيها ذاهلة: «رباه! ما الذي قلته لك؟».

قالت هاريت بخشونة: «لقد ارتاب في الأمر منذ البداية، وحاول عبثاً الإيقاع بي. لكنني أخيراً، حسمت الأمر».

ـ وكيف؟

ترددت هاريت، ثم قالت: «لقد هجم علي كالذئب محاولاً افتراسي، فقاومت بكل ما أملك حتى شارفت على اليأس...».

فثار غضب روزا!

ـ ماذا؟ أتعنين أن ليو أرغمك...

ـ لا، أبداً! كل ما في الأمر أنه أراد التثبّت من أنني لست أنت، مفترضاً أنني إذا كنت امرأة أخرى فلن أقبل. لقد اعترضت وحاولت إقناعه بكل الوسائل.

ـ إذن، فهذا هو الأمر! لا عجب أن يبدو كنمر جائع كلما كان يقترب منك! لكنني لم أستوعب ذلك، يا هاريت. ما الذي جعله يدرك أنك لست أنا؟ ها إن وجهك يحمر مرة أخرى!

أخذت هاريت تحدق إلى حذائها، ثم تمتمت تقول:

ـ قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه، استخدمتُ قوة كامنة في داخلي فاستطعت دفعه بعيداً رغم قوته وثورته. وبانفعال ياتس كشفت عن الحقيقة، وهي أنني هاريت لا روزا!

ـ وماذا كانت ردة فعل ليو؟

ـ كما هو منتظر. ثار غضبه... في البداية على كل حال.

ـ لكنه لم يعد كذلك بالتأكيد. ويبدو أنه أصبح متعلقاً بك.

ـ أعلم هذا. ولكنني، أعلمته بعدم رغبتي في الزواج.

فتأوهت روزا بقنوط: «ولماذا قلت له ذلك؟».

ـ لأن أول ما فعل هو اتهامي بأنني أردت إيقاعه في الفخ.

ـ لا! لكنه، كما يبدو، غيّر لهجته معك منذ ذلك الحين.

ـ نعم، هذا صحيح. ولكن أصارحك بالقول إن ليو يريد علاقة خارج نطاق الزواج.

فتحت روزا فمها ذاهلة: «هل طلب ليو منك أن تكوني عشيقته؟».

فضحكت هاريت: «ليس في الأمر غرابة، أيتها الساذجة. كل ما في الأمر أنه طلب مني أن أعيش معه».

ـ نونّا لا تعرف أحداً يعيش بهذا الشكل. على الأقل ليس من أسرة فورتيناري. إنهم يتزوجون.

ـ والأفضل أن تكون العروس ممن تملك الكروم. هيا بنا نذهب.

كان من المستحيل أن يشعر المدعوون بغير السعادة لزواج روزا بباسكال في كنيسة قروية صغيرة قرب هرميتاج. حين نطقا بعهد الزواج، جرت الدموع من عيون كثيرة. وفي ما بعد، في غرفة طعام خاصة في هرميتاج، عزفت الموسيقى، وتصاعدت ضحكات كثيرة بينما كان العروسان يتلقيان التهاني من ضيوفهما.

قال ليو لهاريت عندما نجح في فصلها عن مجموعة من أقارب باسكال:

ـ تبدين متألقة هذا النهار، إن روزا محظوظة إذ حصلت على وصيفة مثلك تعرف عدة لغات.

ـ ولكن بإمكانك التحدث بالانكليزية. يجب أن أذهب للبحث عن أمي.

ـ إن أمك تتحدث إلى رجل فرنسي لا يتحدث الانكليزية، يبدو عليه الافتتان بها. ابقي معي قليلاً يا عزيزتي. هل فكرت بما اقترحته عليك؟

لم تكن هاريت فكرت بغير ذلك، تقريباً، فقالت: «نعم!».

جذبها ليو إلى ركن هادىء ثم وقف بجانبها ينظر إلى وجهها. كانت روزا طلبت عدم التقيد بالشكليات في عرسها، ولهذا كان ليو مرتدياً بذلة عادية متقنة التفصيل نالت إعجاب هاريت، كما أن ربطة عنقه، يا للغرابة! كانت بنفس لون ثوبها.

ابتسم لها وقال: «هاريت، حبيبتي! أريدك! عودي معي إلى فورتينو».

هزت رأسها بحزم: «لا، يا ليو!».

www.rewity.com

سألها عابساً: «لماذا لا؟».

ـ لا أستطيع أن أخبرك هنا...

ـ تعالي إذن إلى غرفتي في ما بعد. لا أحد سيفتقدنا لمدة ساعة.

فقالت غاضبة: «هذا صحيح. لماذا تريدني؟».

ـ وكيف نستطيع التحدث على انفراد، إذن؟

ـ إنك نسيت أمي.

فقال وكأنما انتهى الأمر:

ـ نونّا تريد منها أن تبقى معها إلى ما بعد الاستقبال. سأقلّكما، أنتما الاثنتان إلى البيت في ما بعد، أي بعد أن أمضي معك بعض الوقت على انفراد.

قال ذلك بلهجة مريبة. فتأملته طويلاً ثم قالت: «يجب أن أذهب. فروزا تريدني».

رد بحدة وقد فرغ صبره: «دائماً روزا، روزا!».

ـ ما كنا تعرفنا إلى بعضنا البعض لولا روزا.

ـ سأصحبك إليها إذن وأشكرها. لكنني أصرّ عليك أن تمضي معي بعض الوقت في غرفتي بعد ذهابها.

ونظر إليها محذراً.

بعدما رحل العروسان إلى شهر العسل وسط عاصفة من الهتاف وقصاصات الورق الملوّن، وجد ليو فورتيناري نفسه مهزوماً للمرة الأولى في حياته. كان توني موستين قد أعدّ عشاءً متأخراً لكل ضيوفه، وهكذا لم يجد ابن خاله الساخط طريقة للتملص من دون إغضاب الجدة والمجازفة بإحداث شرخ آخر بين آل فورتيناري وآل موستين.

العقبة الثانية أمامه كانت اعتراض هاريت الصامت على خطته هذه. لقد غضبت لطلبه منها الذهاب معه أمام الجميع، وهكذا اطمأنت أولاً إلى أن أمها تجلس مسرورة مع سنيورا فورتيناري وعم باسكال، ثم التحقت بعد ذلك بدانتي وبعض أقرباء باسكال، تاركة ليو مع مجموعة من الضيوف الأكبر سناً.

بعد أن انتهى العشاء، جاء إليها ليو على الفور، وقد بدا ثائراً كالعاصفة. لكن هاريت رفضت بحزم الانفصال عن المجموعة، ولأنها تعلم جيداً مراده منها، تجاهلت ما يبدو عليه من عجلة، واستمرت تتحدث وتضحك إلى أن انضمت أمها إليهم.

ـ هاريت، هناك من سيقلني. لقد عرض عليّ «جان تاڤرنير» أن يصحبني إلى البيت. هل ستأتين أم تفضلين البقاء أيضاً؟

ـ بل سآتي معك يا أمي.

قالت هاريت هذا بسرعة قبل أن يتمكن ليو من الكلام، ولكنها خافت نظراته عندما قالت له وداعاً أمام الجميع. فقد وقف جامداً متصلّب الوجه بجانب دانتي، أما هاريت فأمسكت بيد أمها لتدور على الضيوف، ثم عانقنا السنيورا فورتيناري بتأثر عميق.

عندما وصلتا إلى الأخوين فورتيناري، ودّع ليو الأم بلباقة ثم التفت إلى هاريت قائلاً بالإيطالية: «الوداع» وقبل يدها بلباقة تامة. تملك هاريت الخوف من النظرة التي بدت في عينيه وهو يستقيم في وقفته. بعد ذلك مدت يدها إلى دانتي ليقبلها، ثم، دون أن تنظر ثانية إلى ليو، ذهبت مع أمها وعم باسكال.

جلست هاريت في المقعد الخلفي من السيارة، مستغربة جرأتها على ترك ليو بمثل هذه الفظاظة أمام الجميع. وانتبهت إلى أن أمها وجان تاڤرنير كانا يتحدثان بحرارة ولكنها لم تشاركهما الحديث. شكرته بأدب على مرافقتهما إلى البيت، ثم طلبت من أمها أن تجيب بأنها نائمة عمن يسأل عنها تلفونياً.

تهيأت هاريت للنوم بتعاسة بالغة، وهي تشعر بالقلق. كانت تريد، برفضها دور العشيقة أن تحوّل أفكار ليو إلى الزواج. وإذ تذكرت ردة فعله تجاه لويزا براكو، أيقنت أن كبرياء ليو لن تسمح له بالاتصال بها مرة أخرى.

كانت على صواب. فقد تلقت اتصالات تليفونية في اليوم التالي من دانتي والسنيورا فورتيناري، ولكن لا شيء من ليو. علمت أنهم، هم الثلاثة، سيرحلون عائدين إلى إيطاليا عصر ذلك اليوم، فوعدت السنيورا أنها

ستزورهم يوماً ما بصحبة والدتها. بعد ذلك تملكتها رغبة شديدة للاتصال بليو في الفندق. لكنها، في النهاية، أعادت السماعة إلى مكانها، وهي مقتنعة تماماً بأن عاملة التلفون ستجيبها برفض السيد فورتيناري الحديث إلى الآنسة فوستر.

***

كان الوقت الذي تلا عرس روزا بالغ الغرابة. ذلك أنه بعد وفاة الجدة، بدا المنزل في عيني هاريت وأمها موحشاً تماماً. ومن دون روزا التي تبعث الحياة فيه، أو احتمال رؤية ليو مرة أخرى، وجدت هاريت الحياة فارغة بشكل غير محتمل. وإذ لم تستطع إخفاء تعاستها عن أمها القلقة، حدثتها أخيراً بتفاصيل ما حدث بينها وبين ليو، ولكنها ذهلت لردّة الفعل لدى أمها:

ـ لا أريد أن أفقدك، يا حبيبتي! ولكنك، كما يبدو، مغرمة جداً بليو.

فتنهدت هاريت: «بيني وبينك، يا أمي، لقد رفضت ما عرضه علي، فلن أنزل نفسي إلى مستوى وضيع، ثم هنالك السنيورا، أولاً. وروزا تقول إن والدة ليو امرأة محافظة جداً».

إن مجرد التفكير في ردة فعل أناس أمثال صوفيا روسي نحوها جمّد الدم في عروق هاريت، فقالت بتعاسة: «إنني محافظة على التقاليد أكثر مما كنت أظن».

بعد ذلك أُدخلت الأم المستشفى لإجراء العملية. وخلال فترة قصيرة جداً تحسنت حالها إلى حد كبير، فأدركت هاريت إلى أي مدى كان مرض أمها يشيع الكآبة في نفسها. وسرعان ما بدأ العمال في إصلاح المنزل، فقد حان وقت دفن الماضي، كما قالت كلير لابنتها.

ولكن بعض أحداث الماضي، على كل حال، ظل مستمراً وحاضراً. فقد أذهل هاريت أن رجلاً لم تعرفه إلا منذ وقت قصير، استطاع أن يُحدث مثل هذه الثغرة في حياتها. كانت تسمع أخبار ليو من وقت لآخر، لأن السنيورا فورتيناري، كانت تكتب إليهما بانتظام عن أخبار مبريلا، التي أخذ الحمل

يبدو عليها، ودانتي الذي ما زال كما هو حيوية ونشاطاً، وليو الذي كان يجهد نفسه كثيراً في العمل. وقد ردت هاريت عليها قائلة إن عملية أمها كلير نجحت تماماً، والمنزل غارق في فوضى الإصلاحات لكنها لم تجد شيئاً آخر مهماً تحدثها عنه.

وذات مساء، بينما كانت هاريت تعلق بعض الستائر في غرفة الجلوس التي دهنت حديثاً، وأمها تمسك لها السلم، إذا بجرس التلفون يرنّ. قالت هاريت ضاحكة:

ـ دائماً تتصل كيثي في وقت مناسب. اذهبي أنت لتجيبي، وأعدك بألا أنزلق.

ولكن عندما عادت كلير لتقول إن ليو يريدها، كادت هاريت تقع على وجهها، فسألت أمها وهي تنزل السلم: «ماذا يريد؟».

ـ لا أدري، لكن صوته متوتر للغاية.

ـ نونّا؟

ـ اذهبي واعلمي ما الخبر.

فطارت هاريت إلى المطبخ، وتناولت السماعة لاهثة: «ليو؟».

ـ هل كنت تركضين، يا هاريت؟

ـ لا، بل كنت على السلم أعلق الستائر. ماذا حدث لتتصل بي؟

ـ سقطت مبريلا عند قيلا كاستيغليون هذا الصباح...

ـ أرجوك، لا تقل إنها فقدت جنينها.

ـ لا، لم تفقده يا هاريت. اسمعي. مبريلا بخير، ويمكن لماركو أن يأخذها إلى البيت غداً، لكن نونّا صدمت لهذا الحادث إلى حد جعلها تلزم الفراش. إنني قلق جداً عليها.

ـ آه يا ليو، أنا آسفة جداً! هل هي في المستشفى كذلك؟

ـ بل في المنزل. لقد استأجرت لها ممرضة.

ـ شكراً لإعلامي بالأمر.

ـ اتصلت بك لأقول أكثر من هذا.

www.rewity.com

فقفز قلبها: «استمر».

- رفضت نونّا أن تقطع على روزا شهر عسلها، وتريد منك أن تأتي بدلاً منها. [وسكت لحظة] هل ستأتين، يا هارييت؟

شعرت هارييت بغصة لخيبة أملها: «نعم، طبعاً! ولكن يجب أن يكون هذا في العطلة الأسبوعية. إذ لا يمكنني أخذ المزيد من الإجازات».

- يجب أن تأتي على الفور، يا هارييت.

- إذن سأحضر طبعاً.

- سأعوض عليك أي نقود تخسرينها بسبب الإجازة.

قالت بجمود: «أرفض، بكل تأكيد!».

- كما تريدين. لقد سمحت لنفسي بأن أحجز لك مكاناً في طائرة الصباح، وسأكون بانتظارك في مطار «بيزا».

كانت الساعات التالية حافلة بالعمل، من غسل الشعر إلى كي الملابس، لأن الوقت لا يسمح بالذهاب إلى السّوق.

قالت بكآبة وهي تدس في الحقيبة كنزة وبنطلون جينز: «ذهبت في المرة الماضية بأبّهة مستعارة».

فقالت أمها تذكرها: «ولكنك هذه المرة تذهبين ممثلة نفسك. السنيورا لن تهتم بملابسك طالما تعودين إليها. لا أدري لماذا تريد رؤيتك. هل قال ليو شيئاً عن مبلغ خطورة حالتها؟».

قالت هارييت بقلق: «لم يقل إلا أن عليّ الذهاب الآن دون انتظار العطلة الأسبوعية».

هذه المرة وجدت هارييت ليو بانتظارها حالما نزلت من الطائرة. كان يبدو عليه الإجهاد والتعب، فقفز قلبها لرؤيته. ظنت لحظة أنه سيأخذها بين ذراعيه، لكنه، بدلاً من ذلك، أخذ يهز يدها بشكل رسمي للغاية.

وهذا ما جعلها تشعر بالذعر فهو يتصرف معها وكأنهما غريبان.

- شكراً لقدومك يا هارييت!

سألته بقلق: «كيف حال نونّا وميريلا؟».

- نونّا تقول إنها تشعر بتحسن نظراً لقدومك، وميريلا ستعود إلى بيتها عصر هذا اليوم. أمي ستذهب مع فرانكو لإحضارها، لكنها ستكون في الڤيلا أولاً للترحيب بك.

ثم أخذ ينظر إلى مكان حقائب المسافرين: «أيها أمتعتك؟».

أشارت هارييت إلى كيس قديم من القماش من أيام الدراسة. تناوله ليو وسار أمامها إلى السيارة.

- إنها شهامة منك أن تأتي بهذه السرعة.

- العفو!

ألقى عليها نظرة، ثم عاد بانتباهه إلى الطريق.

- قالت نونّا إن أمك تحسنت كثيراً بعد العملية.

- نعم، وهي بأحسن حال الآن. تركتها مع العمال الذين يقومون بإصلاح البيت.

قال ببرودة: «آه طبعاً! كان هذا عرض روزا مقابل حضورك إلى هنا في المرة السابقة بدلاً منها».

شعرت هارييت بالغضب، ولكنها تمالكت نفسها وقالت ببرود: «لقد أرسل توني موستين العمال على نفقته، ولكن والدتي هي التي تدفع تكاليف الإصلاح. لقد تركت جدتي لها بعض المال».

لمحت بطرف عينها فم ليو يتوتر: «أنا أعتذر، هذا ليس من شأني طبعاً».

فهمت ما أراد أن تفهم، فشعرت بالغضب، ولزمت الصمت حتى اقتربا من الڤيلا. قالت: «أرجوك يا ليو، أخبرني بالحقيقة. نونّا ليست على وشك الموت، أليس كذلك؟».

- ليس إلى هذا الحد. لكنها مريضة، لا نستطيع إلا تلبية طلبها مهما كلف الأمر. لقد أرادت منك أن تحضري، فكان أن نفذت لها طلبها. [وأضاف بمرارة مفاجئة] رغم أنك أوضحت لي آخر مرة كنا فيها معاً أنك تفضلين تجنب أي مواجهة معي في المستقبل.

قبل أن تخبره بمبلغ خطأه، أوقف السيارة. وإذا بامرأة ممشوقة، بادية

www.rewity.com

الكبرياء، تخرج إلى الشرفة لاستقبالهما. نزلت هاريت من السيارة بسرعة، مستجمعة شجاعتها للتعرف إلى السنيورا ماريا فورتيناري.

حمل ليو كيس هاريت وصعد أمامها الدرجات: «هذه هاريت فوستر، يا ماما».

هزت الأم رأسها بحيرة واضحة: «يمكنني رؤية ذلك بنفسي. هذا غريب! لو لم أقابل روزا وزوجها قبل أيام لأقسمت أنك هي، يا آنسة فوستر!».

ـ هاريت أقصر من روزا، وشعرها أجعد.

قال ليو ذلك باختصار، فرمقته أمه بنظرة غريبة.

قالت هاريت وهي تمدّ يدها: «كيف حالك يا سنيورا، وكيف حال حماتك، وكذلك ميريلا طبعاً. كانت صدمة لنا عندما اتصل بنا ليو».

أمسكت السنيورا ماريا بيد هاريت لحظة، ثم ابتسمت بحرارة، خلافاً لما فعل ليو منذ وصولها: «ابنتي بخير تماماً، كما أن حماتي تتحسن، وستزداد تحسناً بوجودك هنا، كما يخيّل إليّ. عليّ أن أذهب مع فرانكو لإحضار ميريلا من المستشفى في ما بعد. ولأنك هنا بجانب نونا، سأتركها مطمئنة. من الصعب أن يكون المرء في مكانين في نفس الوقت».

عندما دخلوا المنزل، خرجت سلفيا من المطبخ تبتسم مرحبة: «السنيورا نائمة، ولهذا سأحضر الشاي. ستخبرنا الممرضة عندما تصبح مستعدة لاستقبال الزوار».

كان غريباً أن تجلس على الأريكة المخملية، تحت السقف المزخرف بصور الأطفال، إنما هذه المرة مع امرأة تشبه ابنها بشكل غريب. سألته أمه: «هل يمكنك الجلوس، يا ليو؟ أم يجب أن تعود إلى فورتينو؟».

أجاب بلا مبالاة: «ستسير الأمور بدوني لو تأخرت قليلاً».

قالت ماريا فورتيناري باسمة: «لقد أمضيت هنا وقتاً حافلاً، يا آنسة فوستر».

ابتسمت هاريت بأسف: «حافلاً جداً! تعلمين طبعاً، أن روزا أقنعتني

بالحضور إلى هنا بدلاً منها. يبدو لي الأمر الآن بالغ الغرابة، نظراً للجرأة التي وجدتها للقيام بالدور».

ـ قال لي ليو إنك أذعنت بعد جهد بالغ من روزا. إن مجيئك أسعد حماتي جداً في حفلة عيد ميلادها، ولهذا لا يسعني إلا أن أشكرك. ولكن، يا ليو، كيف بإمكانك أن تفسر لأصدقائك أن هاريت ليست روزا بعد كل هذا؟

فقال ابنها بكبرياء: «من غير المحتمل أن يطرق أحد الموضوع معي. وإذا حدث هذا سأرفض التحدث بشأنه».

ـ عندما يعود دانتي من كاليفورنيا، فليس أمامي سوى الاعتماد عليه ليفسر الأمر بلباقة.

رد ليو بحدة: «هذه هي العادة دائماً!».

ثم هب واقفاً يأخذ من سلفيا صينية الشاي المثقلة.

ـ أحضرت قهوة لك، يا سنيور ليو.

فشكرها بابتسامة دافئة هي الأولى من نوعها منذ وصول هاريت.

عندما أخذت والدة ليو تسكب الشاي، لم تستطع إخفاء دهشتها من الشبه الغريب بين هاريت وروزا. فقالت لها: «سامحيني لتحديقي إليك... لم أر روزا منذ سنوات... لكن جمالها وجمالك من النوع الذي لا ينساه المرء بسهولة. ومع ذلك يقول ليو بأن ليس ثمة قرابة بينكما».

ترددت هاريت ثم قالت متجنبة عيني ليو:

ـ في الواقع، عرفت حديثاً أن لي أسلافاً إيطاليين. وهذا ربما يفسر لون البشرة.

ـ هذا غريب!...

وسكتت ماريا فورتيناري عندما دخلت سلفيا لتقول إن ثمة صديقة للسنيورا على الخط، تسأل عن المريضة.. اعتذرت ماريا ثم خرجت. ولتشغل هاريت نفسها، ملأت فنجانها مرة أخرى.

سألت ليو بأدب: «أتريد المزيد من القهوة؟».

شكرها ثم مدّ لها فنجانه الفارغ، فملأته وأضافت السكر ثم أعادته إليه

www.liilas.com

مسرورة لثبات يدها. قال: «لم تتحدثي قط من قبل عن دمك الإيطالي!».

ـ لم أعلم بذلك حتى وقت قريب.

قال فجأة: «لقد نحل جسمكِ، يا هاريت!».

ـ شكراً!

ـ لم أقصد مجاملتك بذلك.

ابتسمت بوهن: «أنا أسترد شكري إذن، وما دمت قد أتيت على ذكر الموضوع، فقد نحل جسمك، أنت أيضاً».

قال باكتئاب: «هذا ليس غريباً، فأنا أجهد نفسي في العمل».

ـ لكن هذا ليس بالأمر الجديد، أليس كذلك؟

ـ إنني أعمل مزيداً من الساعات.

سألته بأدب: «هل ينقصك شمال؟».

لمعت عيناه بحقد: «لا، لكنني أملأ وقتي لأنسى إذلالك لي علناً».

التهبت عيناها: «لم يعجبني ما عرضته علي».

نهض مضطرباً: «هذا شيء لم أعرضه على امرأة أخرى».

ـ لا أظن أنّك تستطيع ذلك في محيطك هنا في فورتينو.

قالت ذلك بحدة، ثم سكتت حين دخلت أمه الغرفة، وهي تقول باسمة: «المريضة تسأل عنك، يا عزيزتي. لا تدعيها تحتجزك وقتاً طويلاً. لا بد أنك جائعة. ستتغدى معاً عندما تنزلين».

صعدت هاريت إلى غرفة السنيورا، ثم نقرت الباب نصف المفتوح. وأشارت إليها بالدخول امرأة صافية الوجه، في لباس رسمي أبيض.

ـ الآنسة فوستر! أنا كلوديا. تفضلي بالدخول. سأترككما معاً لبعض الوقت.

توجهت هاريت رأساً إلى السرير، متوقعة الأسوأ، ثم ابتسمت بابتهاج عندما رأت السنيورا فورتيناري جالسة مستندة إلى كومة من الوسائد، واضعة على كتفيها وشاحاً من الدانتيل والتحسن بادٍ على وجهها بشكل ملحوظ.

ـ نونا!

هتفت هاريت بذلك وهي تهتز، وشعرت بالدموع تفيض من عينيها وهي تنحني لتقبل الخد الناعم الذابل: «تبدين رائعة، يا نونا!».

ـ أنا رائعة فعلاً لأنك هنا، يا طفلتي!

وبادلتها القبلة بتأثر، ثم أشارت لها للجلوس إلى جانبها في السرير.

ـ اجلسي وأخبريني بكل شيء عن أمك، ثم أخبريني لماذا جعلت حفيدي تعساً بهذا الشكل حتى لم يعد أحد منا يجرؤ على التحدث إليه لئلا يثير غضبه.

ضحكت هاريت وهي تمسح عينيها، ثم جذبت كرسياً صغيراً.

ـ الأفضل أن أجلس هنا. إن سريرك من التنظيم بحيث لا أجرؤ على الجلوس عليه.

شعرت بالراحة البالغة بعد خوفها السابق من أن تكون السنيورا على عتبة الموت. فقد كانت هذه تبدو حسنة الصحة بشكل كبير وهي تقول إن سقوط ميريلا قد أخاف كل شخص إلى حد بالغ.

ـ كان لي دور صغير، ولكن ماريا، كما لا بد رأيت بنفسك، قادرة على مواجهة الأزمات. سرعان ما كان الطبيب هنا وأدخل ميريلا إلى المستشفى دون أن يحدث ضرر والحمد لله. وقبل أن أقول كلمة، أحضر ليو ممرضة خاصة هي كلوديا، ثم وضعوني في السرير وأبقوني فيه. وهكذا انتهزت هذه الفرصة وأرسلت في طلبك.

لم تستطع هاريت أن تمنع نفسها من الضحك:

ـ لقد أخافني ليو جداً عندما اتصل بي. كنت أعلق الستائر فأوشكت على السقوط من أعلى السلم.

ابتسمت المريضة بتأثر: «سامحيني على إقلاقك يا حبيبتي!».

ـ لكنني الآن، بعد أن عرفت أنك بخير، لم يعد يهمني شيء.

نظرت السنيورا بفتور إلى شعر هاريت المعقوص إلى الوراء، وإلى البذلة البحرية الأنيقة التي ترتديها، وقالت:

ـ استبدلي ملابسك بأخرى مريحة، واذهبي لتناول الغداء. ثم أسدلي شعرك على كتفيك. إنك تبدين كالراهبة.

www.liilwity.com
مسلسلات روايتي

قالت هاريت وهي ترفع يدها بالتحية بظرف: «سمعاً وطاعة يا سيدتي! سأراك في ما بعد».

وفي غرفة روزا القديمة، استحمت بسرعة، وارتدت بنطلوناً بنياً من المخمل وكنزة وردية من الكشمير وأضافت بعض الزينة على وجهها وأسدلت شعرها على كتفيها، ثم ركضت عائدة إلى السنيورا لتنال استحسانها.

ـ هل أبدو أحسن؟

فابتسمت المريضة وأرسلت إليها قبلة على أطراف أصابعها تعبيراً عن استحسانها:

ـ رائعة! والآن انزلي وتناولي الغداء مع ماريا. إنك بالغة النحول.

ضحكت هاريت ثم نزلت ركضاً حتى كادت تصطدم بليو أثناء ذلك. أمسك بها يسندها، غارزاً أصابعه في ذراعيها ولأنه لم يستطع السيطرة على نفسه، أخذها بين ذراعيه بقوة فشعرت هاريت بسيل من البهجة لكنها ما لبثت أن استجمعت قواها ودفعته عنها.

* * *

١٢ ـ خُلِقت له..

أثناء الغداء، أوضحت ماريا أن ليس على هاريت قضاء كل وقتها مع المريضة: «الممرضة ستبذل وسعها لتكون حماتي مرتاحة، وعليك أن تستريحي».

فقالت هاريت: «يسرني أن أجلس مع نونّا».

وعضّت شفتها واحمر وجهها لذكرها السنيورا بلقب «نونّا» العائلي، فابتسمت ماريا: «لا تشعري بالحرج، يا عزيزتي. لقد أخبرتني حماتي بأنها اتخذتك صغيرة أخرى لها، فماذا تسمينها غير ذلك؟ [ثم ألقت نظرة على ابنها الواجم] ألا يعجبك الغداء يا ليو؟».

نظر إلى صحنه وكأنه اكتشف وجوده أمامه، ثم قال بكآبة: «لا عيب فيه على الإطلاق!».

ثم أخذ يأكل.. كانت ماريا فورتيناري، كمضيفة، أكثر لباقة من أن تدع الحديث يفتر. وهكذا جرّت ابنها إلى الحديث بحزم، بعد أن سألت هاريت عن صحة أمها كلير وعن حياتها في «بنينغتون»، كما قالت إن دانتي يستمتع بإجازة يستحقها فعلاً. لكن هاريت سرّت حين دخل فرانكو باندفاع بالغ ليذهب إلى زوجته في المستشفى، إلى حد لم يجد معه وقتاً للترحيب بهاريت كما يجب قبل أن يأخذ أمه معه.

قال ليو بجفاء بعد أن ذهب الآخران: «الجو بارد في الشرفة. سنتناول القهوة في الصالون».

www.rewity.com منتديات رواية

فقالت هارييت متضايقة للهجته: «اسمع يا ليو! يبدو أنك متلهف للعودة إلى فورتينو.. لا يتوجب عليك البقاء لأجلي».

وقف ليو بسرعة وقد امتقع لون وجهه غضباً: «إذا كنت لا تريدين حضوري، سأريحك منه طبعاً».

وخرج من الغرفة وبعد لحظات سمعت هارييت، التي تملكها الذعر صوت محرك سيارته يهدر مبتعداً بطريقة هي أشبه بتصرفات دانتي منها بتصرفات ليو.

جاءت سلمًا بصينية القهوة ثم وقفت جامدة وهي ترى هارييت وحدها. فقالت هارييت مرغمة نفسها على الابتسام: «توجّب على الآخرين الذهاب. سأشرب قهوتي ثم أذهب للتنزه في الحديقة».

قالت سلمًا وهي تضع الصينية: «تقول الممرضة إنّ على مريضتها أن ترتاح قليلاً. وهي ستتناول غداءها في المطبخ وستخبرك في ما بعد متى يمكنك العودة لرؤية السنيورا».

شكرتها هارييت ثم شربت كوبين من القهوة، وشعرت فجأة بحاجة إلى ما ينعشها. ما أشدّ حماقتها إذ تنعش الآمال في إلقاء نفسها بين ذراعي ليو، ظناً منها أن كل الاختلافات بينهما قد زالت لحظة تلاقيا. هذا في أحلامك، يا هارييت!.. حدثت نفسها بذلك ساخرة ثم صعدت إلى غرفتها لتحضر سترة ترتديها. وعندما نادتها كلوديا الممرضة داعية إياها للدخول على السنيورا، كانت هارييت قد أذعنت لفكرة أن ليو، مهما كانت رغبته فيها ما زال يراها غير ملائمة كزوجة لأنها لا تملك كروم العنب مثل لويزا، ولا أموال موستين مثل روزا.

وفي غرفة المريضة التي بدت الحيوية عليها بشكل ملحوظ، حاولت هارييت جاهدة أن تطرد ليو من تفكيرها، ولم تجد صعوبة في الجلوس والحديث مع جدته. وعندما تعبتا من موضوع عرس روزا، وحادث ميريلا وصحة كلير، نظرت الجدة إلى هارييت متفحصة: «والآن، أخبريني يا عزيزتي. هل أنت سعيدة؟».

قطبت هارييت جبينها بدهشة، ثم أجابت بعد لحظات: «هذا يعتمد على ما تعنينه بكلمة السعادة، يا نونّا».

فقالت السنيورا ببساطة: «أعني ما يجعل ميريل وروزا سعيدتين. أريد أن أراك سعيدة بتلك الطريقة أيضاً، يا ابنتي».

فقالت هارييت بجدّية: «إذا كنت تعنين مع ليو، لا مجال لذلك. إنه لا يهتم لأمري بتلك الطريقة».

ـ وما هي تلك الطريقة؟

ـ طريقة فرانكو مع ميريل، وباسكال مع روزا.

ـ آه... تعنين كزوج؟؟

أومأت هارييت: «بالضبط! والآن، يا نونّا، هل تريدين مني أن أقرأ لك؟».

مضى الوقت أنيساً وساراً إلى أن حل المساء. فقد قررت هارييت أن تطرد ليو من تفكيرها بعد أن قابلته مرة أخرى وأدركت أن ليس ثمة حل سحري لما بينهما من تباعد وجفاء، وركزت اهتمامها على جدته. وهكذا مرّ الوقت ممتعاً بهيجاً بحيث لم تعترض عندما اتصلت ماريا فورتيناري لتقول إنها تحب أن تمضي مع ابنتها ميريلا يوماً أو يومين إذا كانت السنيورا بخير.

ـ لقد طلبت من ليو أن يزوركم بانتظام في الڤيلا، يا هارييت، ليطمئن عليك. وسأتصل دوماً للتحدث معك. ونحن جميعاً نشكرك. اتصلي بي على رقم ميريلا إذا ساورك أي قلق على صحة السنيورا. ميريل تأمل في رؤيتك عندما تستطيع السير على قدميها أو سآتي لاصطحابك. أبلغي محبتي لحماتي وأخبريها أن ميريلا والطفل على خير ما يرام.

عندما تناولت السنيورا عشاءها، بقيت هارييت بصحبتها لكي تتمكن الممرضة من تناول طعامها مع سلمًا. ولأنها كانت تتمنى أن تتناول هي أيضاً طعامها معهما، نزلت في ما بعد إلى غرفة الطعام فإذا بها تجد المائدة جاهزة لاثنين، وليو في انتظارها.

قال لها وهو يرى وجهها الذاهل: «قالت أمي إنك ستحتاجين رفيقاً على

العشاء، أما إذا كنت تفضلين تناول الطعام وحدك، يا هاربيت، فيمكنني العودة إلى فورتينو».

ابتسمت هاربيت بأدب: «طبعاً لا أفضل ذلك. ويسرني أن تتعشى معي».

بدا كل شيء حسناً، نظرياً. هكذا رأت وهي تبدأ بتناول شرائح الشمام، مصمّمة على أن تنبذ ليو من حياتها. أما عملياً، وهي تواجهه عبر المائدة، فقد كان الأمر مختلفاً. كان يرتدي بنطلوناً وكنزة أسودين وقميصاً أزرق. ورغم علامات الإرهاق البادية تحت عينيه، فإن جاذبيته الصاعقة لبّدت صفاء ذهنها الذي جاهدت لاكتسابه.

قال يمضي الوقت بالحديث: «لقد عادت أمي من كاليفورنيا مبكرة لكي تكون مع ميريلا، لكن أبي بقي هنالك لتسويق العنب في «ناباڤالي»، وذهب دانتي ليلتحق به. سيأسف بالتأكيد لعدم تمكنه من رؤيتك!».

سألته بأدب: «هل الحياة في فورتينو شاقة عليك من دون دانتي؟».

رفع ليو رأسه، فالتقت عيونهما: «ليس غياب دانتي ما ينغص عيشي».

توتر الجو بينهما لحظة، ثم نظر ليو باسماً إلى سلڤيا وهي تحضر طبق الطعام الرئيسي. وعندما خرجت، سأل ليو هاربيت متكلفاً الأدب، كيف تمضي أيامها مع نونّا، فأجابت: «ليس هناك صعوبة في صحبتها. لقد حدثتني عنك وعن دانتي وميريلا عندما كنتم صغاراً. وعن الحفلات والاستقبالات التي كانت تقوم بها عندما كان جدك حياً».

رقّت عيناه: «كانت رائعة الجمال عندما كانت أصغر سناً. يجب أن تري صورها. إن لديها عدة ألبومات، سأبحث لك عنها بعد العشاء».

منذ تلك اللحظة، أصبحت السهرة أقل توتراً. أخذت تسأله عن عمله في فورتينو، وراحت تصغي إلى حديثه عن جهوده الحثيثة للمحافظة على مكانة عائلة فورتيناري التجارية.

وأثناء تناولهما القهوة، سألها: «وماذا عنك يا هاربيت؟ هل تتوقين إلى عملك في التعليم السنة القادمة؟».

قالت بصدق: «ليس كثيراً. فأنا مرتاحة وسعيدة في مدرستي الحالية. لكنني قبلت هذا العمل الجديد لأبقى قريبة من والدتي خلال الفترة المقبلة. بعد ذلك سأتقدم طلباً للعمل خارج البلاد...».

ـ وماذا ستفعل والدتك حينذاك؟

ـ لديها أصدقاؤها واهتماماتها في «بينينغتون»، وهي ترغب أن تعيش حياتها بحرية. [وابتسمت وهي تعيد ملء كوبي القهوة] أمي تؤمن بأن عليها أن تتركنا، أنا وكيتي، نتنفّس كما تقول. وتتوقع منا أن نتركها أيضاً تتنفّس.

ـ إذن لم تكن عودتك إلى البيت والعمل قريباً منها بناء على طلبها فقط.

ـ لا! كان ذلك قراري أنا أيضاً وكان ذلك عن اقتناع مني حينذاك.

ـ لماذا، يا هاربيت؟

أخبرته عن «غاي وارن»، وقناعتها بأن الزواج به سيكون غلطة.

لوى ليو فمه: «يعود الحديث دوماً إلى مسألة الزواج واعتراضك عليه».

غيرت هاربيت الموضوع بسرعة، مصممة على عدم المناكفة والمحافظة على الهدنة الهشة بينهما.

ـ علينا أن نصعد الآن لنطمئن إلى نونّا قبل أن تنام.

تألق وجه السنيورا فورتيناري عندما دخلا غرفتها معاً، وطلبت إلى الممرضة أن تنزل إلى الطابق السفلي لتستريح، ثم قالت لهما: «إنها امرأة طيبة، لكن صحبة هاربيت أكثر متعة بكثير. أنا محظوظة جداً لتلطفها بالحضور، أليس كذلك يا ليو؟».

أجاب وهو يمسك بيدها: «محظوظة جداً! كيف حالك يا نونّا؟».

ـ أحسن كثيراً لأنني رأيتك، يا حبيبي. ولرؤيتكما معاً. [ثمّ منحت هاربيت ابتسامة متألقة وسألتها] هل حضرت سلڤيا لكما عشاء لذيذاً؟

إذن فقد كانت المريضة الداهية تعلم كل شيء عن أن ليو سيأتي إلى العشاء في الڤيلا! هكذا فكرت هاربيت، ولم تكن الفكرة مزعجة.

ـ أخبرني ليو أن لديك كثيراً من الألبومات يا نونّا. هل يمكنني التفرج عليها؟

www.rewity.com

سرّت السنيورا لهذا الطلب، وكلفت ليو البحث عن الصور، قائلة لهاربيت: «غداً سنتفرج على الصور حتى تتعبي وتطلبي الرحمة!».

عندما عاد ليو بعدد من الألبومات، قال محذراً: «توشك الممرضة على القدوم لتساعدك على النوم. فعديني إذن أن تستريحي قدر إمكانك، يا نونا».

قالت بوداعة: «سأفعل بالتأكيد».

رفعت وجهها إلى ليو وهاربيت لتلقي قبلة المساء، ثم سألت حفيدها: «هل سأراك غداً؟».

فقال يطمئنها: «دون شك».

قالت لها هاربيت: «وسأمر عليك وأنا في طريقي لتناول الفطور».

ثم لوحت لها بيدها من عند الباب الذي فتحه ليو.

وفي الردهة، توقف ليو لينظر إلى ساعته:

ـ عليّ أن أذهب الآن. لديّ أوراق للمراجعة قبل النوم، مع الأسف.

قالت بهدوء: «أشكرك لمنحي بعضاً من وقتك والبقاء معي أثناء العشاء».

ـ هاربيت. [ثم سكت فجأة وهو يمرّ بيده على شعره] لا، لا فائدة من بدء حديث في هذا الوقت من الليل لأنه سينتهي بجدل. اذهبي إلى فراشك يا هاربيت. يجب أن تستريحي.

ـ سأودعك إلى الخارج.

وسارت معه إلى الشرفة. كان الليل منعشاً والنجوم تبدو كبيرة في السماء السوداء المخملية. قالت وهي تبتسم له:

ـ يا لها من ليلة رائعة! أنا آسفة لمرض نونا، لكنني لست آسفة لوجودي هنا.

قال بخشونة: «إنني آسف لوجودك هنا؟!».

ـ لكنك أنت طلبت مني...

ـ أعني أنه عندما تعودين إلى بلدك، سيكون الأمر أصعب بالنسبة إليّ.

أخذ يدها وقبّل راحتها بسرعة، ثم هبط الدرجات راكضاً إلى السيارة،

تاركاً إياها متكئة على العمود وهي تسمع صوت محرك سيارته يتلاشى شيئاً فشيئاً.

قررت هاربيت وهي تذهب إلى فراشها أن موقفها لا يخلو من حماقة. فليو يريدها، وهي تحبه.. فماذا يهمها غير ذلك؟ وكان لهذا القرار مفعول الدواء المنوّم، إذ سرعان ما فتحت عينيها لترى النهار قد طلع وسلمى تدخل بفنجان الشاي ماشية على أطراف أصابعها.

اغتسلت هاربيت وجففت شعرها بأقصى سرعة، ثم لبست بنطلون جينز وقميصاً مخططاً و«كنزة» فوقه، ثم خرجت من غرفتها لترى كيف أمضت السنيورا فورتباري ليلتها.

قالت المريضة وهي تمنح هاربيت خدّها لتقبله:

ـ لقد نمت جيداً، يا عزيزتي! وكذلك أنتِ كما أظن؛ إذ تبدين مشرقة. هل حدث شيء الليلة الماضية؟

همست ذلك بأمل واستبشار، فهزت هاربيت رأسها ضاحكة:

ـ لا شيء غير عادي. كل ما في الأمر أنني نمت جيداً. سأعود بعد الفطور لأتفرج على تلك الصور.

فقالت الممرضة بحزم: «بعد ساعة، يا آنسة. هنالك أشياء يجب القيام بها أولاً».

تناولت هاربيت فطورها خبزاً ساخناً وبعض الفاكهة، ثم شربت إبريقاً كاملاً من القهوة. بعد ذلك أخلت المائدة وحملت الصينية إلى المطبخ، فاستاءت سلمى.

قالت باسمة: «يجب أن أساعد في شيء، يا سلمى. أليس هذا نهاراً جميلاً؟ سأتمشى في الحديقة حتى تصبح السنيورا مستعدة لرؤيتي».

لما عادت هاربيت إلى غرفة المريضة في ما بعد، وجدتها جالسة في سرير قد غيرت ملاءاته، أما هي فوضعت وشاحاً على كتفيها، وعلى وجهها علامات الرضا... أو ما يشبه الإذعان. قالت بارتياح عميق:

ـ هاربيت، بإمكان كلوديا أن تنزل الآن إلى الطابق السفلي لتتناول قهوة

www.liilas.com منتديات ليلاس

تستحقها وراحة طويلة أثناء حديثك معي.

عندما خرجت الممرضة، ارتسمت على وجه هاريت ابتسامة عريضة وهي تجلس على الكرسي بجانب السنيورا: «تبدين أنيقة حسنة المظهر تماماً!».

- أنيقة! لقد أعطتني كلوديا حبوب الدواء، وغسلت جسدي في السرير فشعرت بالإهانة، ثم أسندتني إلى الكرسي كالدمية أثناء ترتيبها سريري. قلت لها أن تبقى في الطابق السفلي حتى موعد الغداء، إلا إذا ناديتها. وأظن أن ذلك جرحها.

تراقصت عينا هاريت وسألتها بحنان مرح:

- ماذا تحبين أن نفعل الآن؟ هل نتابع قراءة الرواية، أم نتحدث؟

- لا هذا ولا ذاك. أحب كثيراً أن أريك صوري، يا حبيبتي. ناوليني أول «ألبوم».

انبهرت هاريت، فما كادت السنيورا تقلب الصفحات تريها صورها قبل الزواج، حتى رأت صور فتاة جميلة جداً ترتدي ملابس الثلاثينات، في الحفلات، وملاعب التنس، وفي ملابس تنكرية، ثم في ملابس العرس مع عريس وسيم، وبعد ذلك مع طفل في ثوب التعميد.

- إنه والد ليو، روبرتو. وهناك صورة «أنا» والدة روزا في نفس الثوب بعد صفحة أو اثنتين.

كانت هاريت قد رأت عدة صور في أطر فضية في الصالون، لكن صور ليو ودانتي ومبريلا وهم أطفال كانت جديدة عليها، وقد بهرتها أكثر من سائر الصور. رأت ليو وهو يلعب مع أخيه الصغير وأخته، ثم في سن المراهقة وقد بدت عليه هيبة الأمراء، وروزا الصغيرة بجانبه تحدق فيه بشغف، ثم ليو أكبر قليلاً في غرفة مكتبته مع شابة وسيمة الشكل صارمة الملامح تحلي يدها بخاتم خطبة.

سألتها هاريت: «هل هذه لويزا براكو؟».

- نعم، كانت تبدو جميلة جداً تقريباً في هذه الصورة، ولكن تقدم السن بدأ يظهر عليها الآن، ومع ذلك ما تزال أكثر رشاقة من أختها صوفيا، التي

تكافح الشيخوخة بأسنانها وأظافرها... بمساعدة أموال ماركو زوجها.

وشخرت السنيورا ساخرة!

ضحكت هاريت واحتضنتها، ثم وجدت «ألبوماً» مليئاً بالصور عن كل أنواع المناسبات.

- لم أكن بعد قد تزوجت في أسرة فورتيناري حين التقطت لي هذه الصورة.

قالت السنيورا ذلك بحزن وهي تشير إلى صورة تمثل فتاتين شابتين في ملابس طويلة، تضعان على وجهيهما قناعين مخيفين بمناسبة الكرنفال.

- هذه آخر مرة رأيت فيها ابنة خالي.

- ماذا حدث لها؟

- لقد هربت من البيت، ثم ماتت شابة! [وتنهدت السنيورا بأسى ثم أغلقت الكتاب] هذا يكفي الآن، لا أريد مزيداً من الحزن.

حملت هاريت الألبومات ووضعتها على الرف، ثم عادت إلى الجلوس، شاردة الأفكار بينما راحت السنيورا تتحدث عن الأيام السعيدة التي ذكرتها بها هذه الصور. وبعد لحظات، انتبهت إلى شرود هاريت.

- ماذا حدث يا عزيزتي؟

- ابنة خالك تلك، ماذا كان اسمها؟

- «كيارا»... كانت حلوة للغاية وكنت أحبها كأختي، ولكن... ما بك يا هاريت؟

قفزت هاريت بسرعة: «سأذهب إلى غرفتي لأحضر شيئاً».

وركضت إلى غرفتها ثم عادت تحمل صورة: «هل هذه هي «كيارا»؟».

حملقت السنيورا في الصورة ذاهلة ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنظر إلى هاريت.

- يا إلهي! إنها «كيارا» بكل تأكيد! أكبر مما عرفتها آخر مرة بسنة أو سنتين. ولكن لا شك في أنها كيارا. كيف وصلت إليك هذه الصورة، يا هاريت؟

www.elsewity.com

انتبهت هاريت إلى أن احترام المشاعر قد يضرّ بالسنيورا. فجلست بجانب السرير وهي تمسك بيد السنيورا وتقول ضارعة:

- أرجوك ألا تتكدري. الجميع سيغضبون مني إذا جعلتُ حالتك تسوء.

فقالت السنيورا بشدّة: «الشيء الوحيد الذي قد يقتلني الآن هو الفضول. تحدثي إذن يا فتاة!».

أطاعت هاريت وأخذت تروي قصة «كيارا روسو» بشكل أقل مأساوية قدر المستطاع، وكانت السنيورا تصغي بانفعال، وتكاد لا تصدق بأنها عرفت، أخيراً ما الذي حدث لابنة خالها الشابة. وعندما انتهت هاريت، وبدلاً من أن تأخذ السنيورا بالبكاء، ابتسمت بابتهاج:

- إذن فأنت حفيدة عزيزتي كيارا! لقد صدق شعوري بأنك تنتمين إليّ.

وبمثل ذلك شعرت نحو أمك لحظة اجتماعنا، وهذا ما يفسر شكلك. كانوا يظنوننا، أنا وكيارا، شقيقتين وليس ابنتي خال، وهذا هو السبب في أنك وروزا متشابهتان إلى حد كبير. كان شبه روزا بكيارا هو الذي حببها إليّ دوماً. عندما هربت كيارا، رفض خالي، أبوها، أن يُذكر اسمها أمامه بعد ذلك، حتى بعد موتها. ما أشدّ سروري وأنا أعلم أنها وجدت السعادة! وكم أنا شاكرة لروزا إرسالك إليّ!

بدلاً من أن تسوء حالة السنيورا لأخبار كيارا، بدا أن هذه الأخبار قد زودتها بطاقة جديدة. فطلبت النهوض، لكن تهديد الممرضة لها باستدعاء الطبيب جعلها تبقى في سريرها. وقالت لها هاريت:

- إن نهضت وأصبت بنكسة، سيلومني الجميع لأنني لم أحسن العناية بك.

بذلك وضعت هاريت حداً للنقاش، ولكن شيئاً لم يستطع منع السنيورا من التحدث عن هذا الاكتشاف المحيّر طوال النهار، خصوصاً بعد أن اتصلت هاريت بأمها تخبرها بالأمر.

تملك كلير سرور بالغ: «إذن، فهذا يجعلك من أقارب ليو؟».

- أظن ذلك.

ولقد فكرت هاريت في هذا منذ اللحظة التي علمت فيها أن كيارا ذات صلة بأسرة فورتيناري.

- لن أتوانى عن إخبار كيثي بالأمر.

لكن هاريت كانت أكثر اهتماماً بردة فعل ليو الذي اتصل أثناء الغداء ليسأل عن حالة جدته، لكن هاريت لم تقل شيئاً عن الاكتشاف الجديد. فقد توسلت نونّا إليها أن تدع لها ذلك. لأنها أرادت أن ترى ردة فعل ليو عندما يعلم بقرابة هاريت له.

تلقت الجدة عدة اتصالات تليفونية أثناء النهار تسأل عن صحتها، ومن بينهم ماريا فورتيناري التي عادت تشكر هاريت، قائلة إن ميريلا نائمة حالياً، لكنها تحب أن ترى هاريت في اليوم التالي إذا استطاعت نونّا الاستغناء عنها.

كانت هاريت شديدة التوتّر وهي ترتدي ملابسها للعشاء. ولأن المناسبة تتطلب شيئاً رسمياً أكثر من مجرد ارتداء بنطلون وكنزة، فقد لبست ثوبها المخطط. لكنها تركت شعرها مرسلاً، ووضعت في أذنيها قرطين بلون الكهرمان للتعويض عن جفاء مظهر الثوب. وعندما سمعت طرقاً على الباب، تركت ثوبها مفتوحاً ظناً منها أن القادم هو سلفيا أو كلوديا، وإذا بها تحدق بدهشة بالغة في ليو.

- مساء الخير! جئت باكراً لأنني لم أستطع الانتظار.

- هل أنت قلق بشأن نونّا؟

هز رأسه وهو يلقي نظرة عبر الممر إلى باب غرفة جدته المغلق، ثم أخذ هاريت بين ذراعيه قائلاً بخشونة وهو يميل بجبهته على جبهتها:

- لا أستطيع الاستمرار بهذا الشكل!

همست: «ولا أنا! ولكن اذهب لرؤية نونا. إنها تنتظرك بفارغ الصبر لتخبرك شيئاً».

التمعت عينا ليو هو يحدق فيها، فارتدت هاريت بسرعة وهي تقول بابتسامة مشرقة: «في ما بعد».

www.wattpad.com

أمسك بيدها: «تعالي معي لنراها».

لكنها هزت رأسها: «تريد نونا أن تتحدث إليك على انفراد».

ـ لماذا؟

ـ أسرع، وستعلم.

مرّ الوقت على هاريت وكأنه ساعات قبل أن يعود ليو إليها في الصالون. أغلق الباب خلفه واندفع كالزوبعة يأخذها بين ذراعيه.

ـ الآن، وقد جمع الدم بيننا، لا يمكنك أن تنكري عليّ هذا!

لم تكن هاريت تنوي إنكار أي شيء عليه. لكن هذا الاكتشاف ألهب مشاعر ليو. وإن لم تحاول إيقافه عند حدّه الآن، فقد لا تستطيع ذلك أبداً. وخشيت أن تدخل سلفيا فجأة فتجدهما في وضع غير لائق خلف باب مغلق. هذه الفكرة جعلتها تغرق في ضحك أثار حنقه، وأخذ يشعّث شعرها إلى أن أخبرته بسبب ضحكها، فقال آسفاً وهو يعود فيسوّي شعرها:

ـ الحق معك، يا حبيبتي! لقد ملكت عقلي وكل كياني إلى حد لم أعد أستطيع معه السيطرة على نفسي. لكننا سنتحدث عن كل ذلك أثناء العشاء. وبعد ذلك نذهب معاً لنرى نونا.

لكنه رفض، رغم استياء هاريت، أن يتحدث قبل أن تحضر سلفيا إليهما الطبق الرئيسي وتغلق الباب خلفها. فشرع يقول:

ـ أنا أعلم أنك لا تحبين الزواج...

فقاطعته: «أريد أولاً أن أقول لك شيئاً...».

لكنه رفع يده يسكتها:

ـ دعيني أتحدث، ثم قولي بعد ذلك ما تريدين، أعدك بذلك. كان سرور نونا كبيراً عندما علمت بقرابتك لها، خصوصاً وأن صورة كيارا روسو قد كشفت غموضاً طالما أزعجها. [وابتسم لهاريت بحرارة لم تكن تظن أنها ستعرفها مرة أخرى] وكما أنها فسّرت ذلك التشابه العائلي، رغم قناعتي منذ البداية أنك لست روزا.

رفعت هاريت حاجبها غير مصدقة:

ـ أظنك فقط لا تريد أن تعترف بأنك خُدعت.

هز ليو كتفيه ضاحكاً: «حتماً، لا!».

ثم عاد يقول جاداً: «قبل أن نصعد إلى نونا، يجب أن تعلمي أنها تريد من كل قلبها أن نتزوج. كانت تريد ذلك على الدوام. وبعد أن علمت بأنك حفيدة كيارا، ازدادت تصميماً».

دفعت هاريت صحنها بعيداً: «وما رأيك أنت بذلك؟».

قال بحرارة: «تعرفين رأيي. هل من الصعب عليك التظاهر فترة بأنك تريدين الزواج بي؟».

نظرت إليه باستنكار: «أتظاهر؟».

فأومأ يقول: «أعلم أنك، لسبب ما، تكرهين التفكير في الزواج. لكن نونا ضعيفة البنية وقلبها مريض، وستبتهج كثيراً إذا علمت أننا سنتزوج يوماً ما. إن عقد خطوبتنا طريقة مقنعة لإرضائها».

أخذت هاريت تحدق فيه وقد تملكها الاضطراب.

تابع يقول ناظراً في عينيها: «حين رأيتك في البداية، بدا واضحاً أنك على علم برغبة نونا».

قالت مقطبة جبينها: «لا! لم أكن أعلم. هل يمكننا إيضاح الأمور بشكل أفضل؟».

هز كتفيه: «الأمور واضحة كعين الشمس بالنسبة إليّ. سأعطيك الخاتم ثم نعلن خطبتنا. [ثم قفز واقفاً وهو يمدّ إليها يده] هيا بنا نصعد إلى غرفة نونا لنسعدها بأخبارنا».

قالت له وهو يدفعها إلى الطابق العلوي: «ولكن، يا ليو، لم أقل إنني موافقة...».

جذبها بين ذراعيه: «أنت موافقة! لقد أوضحت ذلك قبل الآن. هل نسيت؟».

وقرع باب غرفة الجدّة، ثم دفع هاريت أمامه وهو يبتسم، ظافراً: «أقدم لك خطيبتي، يا نونا! هل لك أن تهنئيني؟».

www.liilas.com منتديات ليلاس

في النهاية كان على المرضة، رغم ابتسامتها العريضة، أن تضع حداً لهذا الموقف المثير، فقالت بحزم: «حان وقت نوم السنيورا».

عبست السنيورا فورتيناري، لكنها استجابت بوداعة، وهي تقول: «سأشفى بسرعة الآن. يجب أن أصبح قوية لحفلة الزفاف. أخرج مع هاريت، يا ليو، لتحتفلا بهذه المناسبة. كلوديا سترعاني».

بعد دقائق، وجدت هاريت نفسها في سيارة ليو «المازاراتي» في طريقهما إلى فورتينو، وهي تقول بقلق: «هل من الضروري أن نترك نونّا؟».

- إن لدى كلوديا رقم تليفوني الخليوي. إذا احتاجتنا ستكون هنا خلال دقائق. لكنني سآخذك الآن إلى بيتي.

فقالت بجفاء: «قد يكون من الأفضل أن نتحدث هنا على انفراد لبعض الوقت. لقد ذكرت نونّا كلمة الزفاف. كيف تتصرف بالنسبة إلى ذلك؟».

لكن ليو رفض التحدث في هذا الأمر قبل أن يصبحا في بيته الذي طال شوق هاريت إليه. ولكن ما إن دخلا حتى أخذها ليو بين ذراعيه بطريقة أوضحت تماماً سبب إحضاره لها إلى هنا.

قالت لاهثة: «هذا ليس إنصافاً. عليك أن تجيب عن بعض الأسئلة».

- لكنني أجيب على ذلك فعلاً. إنني أنوي إقناعك بأننا لبعضنا البعض.

- يبدو أنك تريد إرغامي لا إقناعي!

- هاريت، اسمعي! في المرة الماضية لم أترك لك خياراً. أما الآن، رغم أنني أريدك أكثر مما أردت شيئاً طوال حياتي، فسأمنحك الخيار. ولكن إذا كنت ترفضين، فقولي ذلك بسرعة أرجوك!

منحته هاريت ابتسامة مرتجفة: «لقد اخترت قبل أن تحضرني إلى هنا بوقت طويل، يا ليو».

أغمض عينيه على الفور، ثم أخذها بين ذراعيه، فأذعنت له من كل قلبها.

قال: «انظري إلي».

رفعت عينيها إلى عينيه فوجدتهما تتألقان بنظرة خطفت أنفاسها.

قال: «أريد أن تنظري إلي لتري كم أعبدك. وكم اشتقت إليك».

ثم عاد يضمها بشغف وحب فقال بصوت أبح:

- إنني أحبك يا قريبتي الصغيرة، فهل تحبينني أنت؟

قالت وهي تشيح عنه بوجهها: «لا بد أنني كذلك، وإلا...».

- وإلا لما كنت هنا. إذا كان ذلك يتضمن أي مغالطة، يا عزيزتي فهو من نونا. لقد قالت إنني لست بحفيدها إن لم أستطع الفوز بقلبك.

ابتعدت هاريت فجأة وقد تملكتها صدمة: «أتعني أن هذه فكرة نونّا؟».

- لا، بل فكرتي! لكنها تقبلتها بحماس.

احتضنها بحنان حتى انتظمت أنفاسهما وعادت خفقات قلبيهما إلى طبيعتها. رفع رأسه ونظر إلى عينيها الواسعتين الذاهلتين. فهمس: «بماذا تفكرين؟».

فقالت باسمة: «كان يحيرني دائماً حديث الناس عن الحب. هذا الحب الذي لم أعرفه قط... إلى أن رأيتك».

هزها ليو قليلاً: «لا تختاري كثيراً. فأنت لم تخلقي إلا لي أنا».

أومأت برأسها ببطء: «أعرف الآن لماذا لم يكن لدي أية رغبة في أي رجل آخر قبلك».

قال وهو يمرّ بيده على شعرها الأشعث: «أظن أنني أعلم جواب ذلك. ولكن أخبريني ماذا تقصدين، يا حبيبتي».

ابتسمت في وجهه المسيطر: «الأمر بسيط، وهو أنني لا أستطيع أن أحب بجسدي فقط، وإنما بقلبي أيضاً، وإلى الأبد».

أضافت ذلك لتبدّد أية شكوك لديه.

احتضنها بشدة: «هل تعترفين أخيراً بأنك تحبينني؟».

شهقت وهي تبتسم له: «نعم!، وسآتي لأقيم هنا، إذا كان هذا ما تريد».

جلس وهو ينظر إليها مقطباً: «ليس هذا بالضبط ما أريده، يا هاريت. لكنني ظننت أنك ترفضين فعلاً فكرة الزواج. وهذا هو السبب في لجوئي إلى

www.rewity.com منتديات رواية

التحايل عليك. رأيت أنك إذا رضيت بالخطبة أولاً فسأجعلك في النهاية تغيرين رأيك وتقبلين الزواج بي».

قالت وهي ترتجف لفرط السعادة: «ظننتك تريد الخطبة لتسرّ نونا فقط!».

- أنا لست بهذا النبل، يا هارييت. لو لم أكن أريدكِ، لما استطاع أحد حتى جدتي اقناعي بذلك.

سألته: «إنه إذن ليس مجرد شيء «مناسب»؟».

ابتسم وقال باعتداد: «طبعاً لا! هل تغيرّ الآن رأيك في الزواج بي، يا حبيبتي؟».

- لا!

قال ساخطاً: «لا؟!».

ابتسمت بوجه مشرق: «لم أكن قط ضدّ الزواج، وإنما أنت الذي كنت تتحدث دائماً عن علاقة غير شرعية».

أخذها بين ذراعيه: «لكنك أخبرتني بأنك لا تريدين الزواج، أيتها الساحرة!».

- كان ذلك حين ظننت أنت أنني أريد إيقاعك في شرك الزواج. أليس هذا ما قلته يوماً. لست وحدك من يملك الكرامة، يا ليو فورتيناري!

ضمّها بشغف، ثم أخذ يتمتم عابساً عندما رن جرس التليفون ورفع السماعة يرد بعنف، لكنه ما لبث أن أخذ يضحك:

- نعم، يا نونا! [واستمع لحظة] طبعاً سأفعل، يا نونا!.. تصبحين على خير.

وضع السماعة وهو يبتسم: «إنها تريد تعيين موعد لحفلة الزفاف، يجب أن تتزوجيني، وإلا فقدت عقلي!».

قطبت جبينها وقالت بلهجة باردة: «سأنظر في طلبك جادة، يا سيد فورتيناري... هذا إذا لم يكن قلبي مشغولاً..».

وغمزت بعينها غير قادرة على إخفاء ابتسامتها، فقفز ليو فرحاً وضمّها

بحركة عنيفة أطلقت من فمها صرخة استغاثة.

تمالك نفسه وقال: «أتمنى أن تبقي معي. ولكن يتوجّب عليّ الآن إعادتك إلى الڤيلا بناء على إصرار جدّتي».

- هي إذن مسرورة؟

- بمقدار ما أنا مسرور، تقريباً. سنذهب غداً لشراء الخاتم. كنتُ ناجحاً أليس كذلك؟

- بماذا؟

- بمراهنتي على إقناعك بالزواج. كنتُ مقتنعاً بأنني عندما أضع خاتم الخطبة في إصبعك فلن أدعك تفلتين من الزواج.

- هذا ما خطر لي، أنا أيضاً.

أخذا يضحكان معاً قبل أن يضطر ليو فورتيناري إلى مفارقة ابنة خاله على شرفة ڤيلا كاستيغليون.

قال وهو يودعها: «أخيريني مرة أخرى بأنك تحبينني».

ثم رفع رأسه مقطباً حين جاءت الممرضة تقاطعهما، بحرج واضح: «لا تريد السنيورا أن تستقر قبل أن تراك، يا سيد ليو. والوقت الآن متأخر جداً. سأعدّ لها شراباً ساخناً بينما تحيينها أنت تحية المساء».

تبادلت هارييت ابتسامة معه قبل أن يسرعا إلى الطابق العلوي ليشركا الجدة في سعادتهما.

قالت الجدة بوجه مشرق: «لقد أخبرت أمك، يا ليو. ولكن عليك يا هارييت أن تتصلي صباحاً بأمك وكذلك بروزا في باريس».

فقال ليو بحزم: «وأنت عليك أن تستريحي، لقد أقبلت كلوديا لتطردنا من الغرفة».

خرجا بعد تبادل التحيات السعيدة مع الجدّة ثم وضع ليو ذراعه حول هارييت وهما يهبطان السلم وتنهد متأسفاً: «تأخرت وعليّ أن أذهب!».

مالت هارييت إليه وهي تنظر إلى النجوم، مقطبة جبينها: «سأرسل

www.rewity.com

استقالتي إلى مدرسة «روديل». ولكن سيتوجب عليّ الاستمرار في العمل حتى يجدوا معلمة بديلة».

قال ليو بقنوط: «صحيح، نسيت ذلك!».

ـ لقد تعودت على العمل. ليس عليّ أن أشتغل في التعليم، لكنني أحب أن أقوم بعمل ما، بعد الزواج.

قال بسرعة: «إنك تجيدين عدة لغات، ويمكنك مساعدتي في التسويق في فورتينو. هل يعجبك هذا يا حلوتي؟!».

قالت بمرح: «يمكنك أن تراهن على ذلك».

سكتا لحظة، كارهين لحظة الفراق، راضيين بهذا العناق حالياً.

قالت هاربيت بعد لحظة: «يجب أن أتصل بأختي كيتي صباحاً وأيضاً برئيسي في الشركة، ثم بالدكتور «رشويرت» مدير المدرسة».

ـ وأنا عليّ الاتصال بأبي وبدانتي في كاليفورنيا، وكذلك بتوني وأليغرا.. كان عليّ أن أتزوج لويزا براكو، لأتجنب فاتورة كل هذه المخابرات.

قالت هاربيت بحدة: «وكذلك لتستولي على كرومها في الوقت نفسه».

قال شيئاً بالإيطالية بذيئاً للغاية عن كروم لويزا، ثم أمسك بوجه هاربيت ينظر في عينيها: «بين ذراعي الآن كل ما أريده في هذه الحياة!».

قال ذلك وهو يحتضنها مثيراً في كيانها عاصفة من التجاوب منعتهما من الانفصال قبل مرور فترة من الوقت.

رفعت رأسها إليه، باسمة، ثم ألقت برأسها على صدره، وعقدت ذراعيها حوله، تستمع إلى دقات قلبه تحت خدّها.

ـ إنها مشاعري بالضبط!

قالت هاربيت ذلك، ثم عادت تكرر الجملة بالإيطالية، لكي تثبتها في عقله وقلبه.

* *

www.rewity.com
منتديات روايتي